متن الأصول الثلاثة

للشيخ محمد بن عبد الوهاب

شرح الأستاذة أناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذه بداية لقاءات شرح الأصول الثلاثة، أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يجعلها مباركة وأن ينفعنا بها؛ اللهمَّ آمين.

سيكون التعليق على الرسالة تعليقًا مختصرًا، نبدأ أولًا بقراءة متن الرسالة، ثم نبدأ بالتعليق:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:

الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ.

الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}؛ قَالَ الشَّافِعِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: "لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ".

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: "بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}[1]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ (قَبْلَ الْقَوْلِ وَالعَمَلِ)".

سنأخذ نقاطًا في التعليق على هذا المقطع من رسالة الأصول الثلاثة:

بدأ الشيخ رسالته بالبسملة عملًا بالأحاديث الواردة بالافتتاح بالبسملة والحمدلة مع ما في هذه الأدلة من مقال؛ لكن الأقوى مِن ذلك أن هذه البداية بالبسملة تأسِّيًا بكتاب الله تعالى، وهذا هو منهج السَّلف الذي درج عليه أهل العلم قديمًا وحديثًا.

قال: **اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ**: هذا الخطاب موجَّهٌ لكلِّ مَن يَصْلُح له الخطاب، والوجوب هنا على معاشر المسلمين؛ لأن ما اشتملت عليه الرسالة ليس ممَّا يجب على طلَّاب العلم فقط، بل مما يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم أربع مسائل:

1. يجب علينا أن نتعلَّم العلم.
2. ويجب علينا أيضًا أن نتعلَّم كيف نعمل بهذا العلم.
3. ويجب علينا أن نتعلَّم كيف ندعو إلى هذا العلم الذي تعلَّمناه.
4. ويجب علينا الصبر على الأذى في الله تعالى: في تحصيل العلم، وفي سبيل العمل بالعلم، وفي سبيل الدعوة إلى العلم.

(1) [سورة محمد:19]

إذًا الوجوب هنا على معاشر المسلمين، والمطلوب تَعلُّمُ العلم، والعمل بالعلم، وتَعلُّمُ كيف ندعو إلى هذا العلم، والصبر على الأذى في سبيل الله.

قوله: **الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ**: هذه المسألة الأولى: العلم؛ فسَّر العلم بالمعرفة فقال: **وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ**.

المقصود بمعرفة الله أو العلم بالله:

- معرفة الله بأسمائه وصفاته.
- ومعرفة الله بآلائه ونعمائه.
- ومعرفة الله بالآيات المتلوَّة والآيات الكونية.

معرفة توجب محبَّته-سبحانه وتعالى-، وتوجب خشيته، وتعظيمه، وتعظيم أمره، وتعظيم شرعه.

إذًا المقصود من المعرفة وجود المحبَّة؛ لأن محبة الله هي روح الإيمان.

واعلم أن إيمان العبد إذا خلا من المحبَّة، كان كالجسد الميت!

وعبَّر عن العلم بالمعرفة؛ لأن المعرفة لابد أن يسبقها جهل، فيستعمل في حق الناس المعرفة، ولا تستعمل في حق الله.

إذًا اعلم أنك جاهل بالله، يعلِّمك الله عن نفسه:

- في كتابه.
- وبما يظهره لك من آلائه ونعمائه.
- وبما نصبه لك من الآيات الكونية.

فجمع لك بين أدلَّة متعددة لابد أن تكون نتيجتها-لو تأمَّلت جيدًا-: وقوع المحبَّة في قلبك.

ومعرفة الله-عزَّ وجلَّ-ليست معرفة بالدعوى فقط، بل هي معرفة تحتاج منَّا إلى بذلٍ وجهد.

وتنبني أصلًا على تصديق خبر الرب-سبحانه تعالى-الذي وصف فيه نفسه، ووصف فيه فعله-سبحانه وتعالى-في الكون، ومع عباده، وما سيفعله-سبحانه وتعالى-حين يلقاه عباده.

قال: **وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-**: أيضًا مطلوب منك معرفة نبيِّه، ومعرفة نبيِّه معرفة:

- تبعثك على تصديق كل ما أخبر به.
- وتوجب لك طاعته، واتِّباع هديه، توجب لك توحيد المتابعة؛ بحيث لا تعارض قوله-صلى الله عليه وسلم-بقول أحد؛ لأنَّ مَن عرف بأنه رسول يُطاع لا يعصى، وعبدٌ لا يُعبد، ونبيٌ لا يُكذَّب، لا يمكن أن يعارض أقواله -صلى الله عليه وسلم-وسنَّته وهديه بأقوال الرجال وآرائهم.

إذًا المقصود من معرفة الله: محبَّته-سبحانه وتعالى-.

والمقصود من معرفة النبي-صلى الله عليه وسلم-: أن تعرفه معرفة تبعثك على تصديقه، وتوجب طاعته، واتِّباع هديه.

وهذا لا يكون إلَّا بتوحيد الألوهية في الكلام عن الله، وفي توحيد المتابعة في الكلام عن الرسول-صلى الله عليه وسلم-.

مطلوب منك معرفة الله-عزَّ وجلَّ-بأسمائه وصفاته وآلائه ونعمائه وبآياته المتلوَّة وآياته الكونية، كل هذا حتى يقع في قلبك توحيد الألوهية.

ومطلوب منك أن تعرف النبي-صلى الله عليه وسلم-وما بُعث به، كل هذا من أجل أن تحبَّه المحبة الشرعية.

أنت تحتاج مع النبي-صلى الله عليه وسلم-أن يقع في قلبك له المحبَّة الشرعية-وسيأتي تفصيل هذا الكلام أكثر في موطنه-: أن تحبه أكثر مما تحُب نفسك وأهلك ومالك، لكن اعلم أن كل من يُحَب دون الله إنَّما يُحَب لله، ولكن الله-عزَّ وجلَّ-يُحَبُّ لذاته، وكل أحد غير الله يُحَبُّ لله؛ فماذا يمكن أن يكون في القلب لو كانت ليست محبَّة لله؟

قد يكون للقرابة، وقد يكون-كما يعبِّرون اليوم-من العظماء العباقرة ممكن أن يقع في القلب مثل هذا، أو قد يكون لذاته وليس لكونه رسول من عند الله-عزَّ وجلَّ-.

تأتي النقطة الثالثة: **وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ** نأتي لهذه المعرفة ونقول: إن كلمة (الإسلام) إذا أُطلقت تنصرف إلى معاني:

- {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ}[1] يعني الإسلام هو دِين جميع الأنبياء.

يعني كل ما أَرسل به رسله اسمه إسلام، ما جاء به نوح، ما جاء به إبراهيم، ما جاءت به كل الرسل اسمه: إسلام، ثم أصبح هذا الاسم علمًا بالغلبة لما جاء به إمام المرسلين محمد-صلى الله عليه وسلم-.

- أيضًا تطلق كلمة (الإسلام) كما ورد في حديث جبريل-عليه السلام-على أحد مراتب الدِّين؛ وهي التي تقابل الإيمان.

وإذا أردت أن ترى ما هي العلاقة؟ فلابد أن تتصوَّر أن معرفة هذا الدِّين الذي جاء به الرسول-صلى الله عليه وسلم-سبب للتعرف على الأديان الأخرى، به تعرف الرسل وما جاءت به الرسل، وتحب الرسل، وتصدِّق الرسل؛ فدِين الرسول-صلى الله عليه وسلم-هو المفتاح لدِين الإسلام الذي جاءت به كل الرسل.

وحقيقة الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك.

وهذا الاستسلام مبني على أمرين:

1. مبني على اعتقاد استحقاق الله لكمال الصفات؛ ومن ثمَّ استحقاقه لأن يكون هو وحده الإله المعبود المرجو المطاع المحبوب.
2. ومبني أيضًا على أن تعتقد أنه لا سبيل لإظهار استسلامك إلَّا عن طريق متابعة سنَّة الرسول-صلى الله عليه وسلم-، أي إذا وقع في قلبك تعظيمٌ وذلٌّ وانكسارٌ لله-عزَّ وجلَّ-وجب عليك أن تعلم أن كل هذا التعبير عنه لا يكون إلَّا بما ورد في سنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-.

(1) [سورة آل عمران: 19]

إذًا لا تنفعك الطاعة والعبادة إلَّا إذا كانت مأخوذة من مشكاة النبوَّة؛ وأيُّما عمل لا يؤخذ ممَّا جاء به الرسول-صلى الله عليه وسلم-ودَرج عليه الصحابة، لا يسمَّى إسلامًا؛ لأن من استسلامك لله: أن تستسلم ألَّا تعبد الله إلَّا بما جاء عن طريق رسوله، فأنت توحِّد الرسول بالمتابعة.

قال الشيخ: **بالأَدِلَّةِ**: أي أن معرفتك لله، ومعرفتك لنبيِّه، ومعرفتك للإسلام لابد من الأدلة فيها.
وكل علم يُقدَّم بدون دليل، فهو دعوى؛ والدعوى لابد لها من بيِّنة؛ والبيِّنة ما هي؟ هي: قال الله وقال الرسول، وإجماع الصحابة.
إذًا بهذا انتهينا من المسألة الأولى؛ التي هي معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ: المقصود بالعمل به: أن كل ما تعلَّمت فمن المؤكَّد أنه يحتاج منك إلى: عمل بالجنان أو بالأركان.

فإمَّا قلبك يكون عاملًا بما تعلم، فإذا تعلَّمت عن أسمائه-سبحانه وتعالى-وصفاته؛ اشتدَّ عمل قلبك في الخوف، الرجاء، والخشية، والإنابة.
وكلَّما زاد قلبك اعتقادًا به-سبحانه وتعالى-؛ زادت أركانك عملًا.
واعلم أن العمل بالشريعة يدخل في كل باب: في علاقتك مع ربك، في الاقتصاد، في السياسة، وفي الأخلاق، وفي كل شيء، فأنت تكون مظهرًا لعبادتك، تكون مظهرًا لطاعتك، تكون مظهرًا لانقيادك وذلّك وانكسارك. فعلى هذا لا يكون أحد إلَّا وهو عابدٌ لربه في كل مجال، كل مجال يتيسَّر لك فيه الحركة والعبادة، كل مجال يتيسَّر لك فيه العمل، يتيسَّر لك فيه العبادة، وخصوصًا العبادات القلبية؛ فأنت في كل عمل مستعينٌ بربِّك، وأنت في كل عملٍ متوكلٌ عليه، وأنت في كل عمل راجٍ عطاءه، وأنت في كل عمل تعلم أن الأرزاق بيده، والتوفيق من عنده، فأصبح هذا عمل للدنيا أو للآخرة، في كل الحالات أنت عامل بما تعلَّمت.

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ: المقصود الدعوة إلى الله، والدعوة إلى الإسلام.
ولابد أن تتصوَّر أن الدعوة عمل لا يمكن القيام به إلَّا بعد أن تتعلَّم، وتعمل بعلمك.
والدعوة حكمها العام: الوجوب؛ لكن تتفاوت على حسب حال الشخص.
والدعوة دعوتان:

- دعوة تأسيس.
- دعوة تصحيح.

دعوة التأسيس:

هي الدعوة التي توجَّه إلى غير المسلمين، فتعلِّمهم العقيدة الصحيحة، وتعلِّمهم العمل الصحيح؛ فتنزِّه ربك عن الصاحبة والولد، وتنزِّهه عن الأنداد والشركاء، هذا كله تأسيس في قلب المدعو.

دعوة التصحيح:

هي الدعوة التي توجَّه إلى المسلمين الذين انحرفوا عن دينهم، أو جهلوا العبادة الصحيحة، المسلمين الذين دخل عليهم الشرك في عباداتهم بأن عبدوا غير الله، أو الشرك من جهة متابعتهم لهواهم، تُعلِّم المسلمين الذين جهلوا معنى لا إله إلا الله، تعلِّمهم بحيث تدفع عنهم وتصحِّح لهم ما حصروا عليه معنى لا إله إلا الله.

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ: والصبر: هو حبْس النفْس وعدم الشكوى إلَّا لله تعالى.

- والآن مَن يتعلَّم يحتاج إلى صبر:
- يدفع العوارض الخارجية التي يمكن أن تصيبه وتقطع عليه طريق الطلب.
- ويدفع أيضًا المعارضات النفسية الداخلية التي يمكن أن تقطع هي أيضًا طريق الطلب.

نصبر على صعوبة الطلب.

- أيضًا يحتاج أن يصبر على العمل بهذا العلم؛ فهو كلَّما تعلَّم، كان مطلوبًا منه أن يتمثَّل ما تعلَّمه؛ فيحتاج إلى شدَّة استعانة وتوسُّل وطلب من الله أن يُوفِّق.
- يحتاج أيضًا إلى صبر في مواجهة المجتمع باستقامته؛ فالمجتمع لا يوافق على كثير من مظاهر الاستقامة؛ لأنها ربَّما تضيِّع مصالح لهم يجدونها معك، أو ربَّما تسبِّب استقامتك لهم إزعاج. الشيطان يحرِّكهم، لكن مطلوب منك أن تعرف أن الله لطيف في باب الإيذاء؛ أي يلطف بعباده.

كلَّما تعلَّم العبد واشتد صلابةً وقوةً في إيمانه، ابتلاه الله ليرفعه، ابتلاه الله ليصطفيه وليرفع درجته، لذلك أعظم الناس بلاء-كما هو معلوم-الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، كما ورد في الحديث: ((يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ، زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ!))[1].

لذلك هذه درجة عُليا: أن يعلِّمك ويربِّيك ثم يبتليك، فاصبر على ما أصابك وأنت صادق في إرادة الأجر من الله، فما يبرح البلاء بك حتى يتركك تمشي على الأرض ما عليك خطيئة!

(1) رواه أحمد وصحَّحه الألباني.

وأنت إذا نظرت إلى من قبلنا من الدعاة المصلحين بدءً بالأنبياء وانتهاءً بالعلماء المعاصرين؛ تجد كيف أن الله-عزَّ وجلَّ-ابتلاهم في إيمانهم، وابتلاهم في قوة صبرهم واحتمالهم للناس، فيبتلى العبد، بقدر أنفاسه يُختبر في توحيده، فمن اشتدَّ إيمانه وقوي، مُحِّص توحيده؛ لكن مهم أن يتنبَّه العبد أنه في حال اختبار.

نبتدئ بالكلام حول الدليل، قال: **وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}:**

وَالدَّلِيلُ: المقصود الدليل على هذه المسائل الأربعة؛ لأنه جعل لها مرتبة الوجوب.

قال: **يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:** أي على جميع المسلمين، فما الدليل على ذلك؟

الدليل هذه السورة القصيرة التي يحفظها تقريبًا كل مسلم وهي سورة العصر، في سورة العصر الدليل على الوجوب:

أولاً: (و) هذه واو القسم، {العَصْرِ} هو المقسم به، فالله-عزَّ وجلَّ-له الحكمة البالغة في أن يقسم بما يشاء، ونحن لا يجوز لنا إلَّا أن نقسم بالله.

والمقصود بالعصر:

- قيل: هو عصر النبوَّة، عصر محمد-صلى الله عليه وسلم-، أقسم الله ليبيّن مكانة هذا العصر.
- قول آخر: أن المقصود به صلاة العصر؛ لأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى على أصحّ القولين، وهذه الصلاة الوسطى تمتاز على الصلوات الأخرى أنه تجتمع فيها الملائكة الذين ظلوا فينا كما هو معروف في الحديث: ((يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟، فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ))[1]. وأقسم الله بالعصر لبيان مكانة هذه الصلاة.
- القول الثالث: قيل: أن العصر بمعنى الدهر، يشمل جميع العصور.

على كل حال مهما كان العصر الذي أقسم به، الذي يهمنا في السياق أنه: أقسم الله على أن جنس الإنسان في خسارة وفي هلاك، لكن هناك استثناءات.

والمستثنون الذين اتصفوا بهذه الصفات:

أولًا: صفة الإيمان.

آمنوا بماذا؟ لابد أن يكونوا تعلموا شيئًا ليؤمنوا به.

أول وصف لمن يَسْلم من الخسار هو وصف الإيمان، والمعنى إلَّا الذين آمنوا بما أمر الله تعالى من الإيمان. من أين لهم أن يعرفوا ما أمر الله به من إيمان؟ من العلم النافع.

(1) رواه البخاري، (كتاب مواقيت الصلاة، باب فَضْلُ صَلاةِ الْعَصْرِ، 555).

يخبر تعالى أن الناس كلهم في خسار، {إِنّ الإِنْسَانَ} المقصود به جنس الإنسان؛ و(أل) هنا للاستغراق بدليل الاستثناء الذي أتى بعدها، كل الناس في خسارة يعني النقصان والهلكة، وهذا مناسب-لو نظرنا بهذه الصورة-أن يكون العصر هو الزمان الذي تقع فيه الأحداث، أي أن يكون الاختيار هو القول الثالث؛ لأن أفعال الناس وتصرُّفاتهم كلها تقع في هذا الزمن، فالعصر ظرف يودعه العباد أعمالهم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

هذا العصر الذي هو الوقت، هو بالنسبة لك رأس مالك. حياة الإنسان أيامه ولياليه، هي رأس ماله، إذا مات ولم يؤمن ولم يعمل صالحًا، خسر كل الخسران.

ولاحظ أن الخسران هنا مطلق:

- قد يكون الخسران بالكفر.
- وقد يكون بترك العمل.
- وقد يكون الخسران بترك التواصي بالحق.
- وقد يكون الخسران بترك التواصي بالصبر.

  - فإذا كان بالكفر أي ضد الإيمان: كما ورد في آية الأنعام: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ}[1]، وقوله تعالى: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[2]، هذا خسران حبط فيه العمل، ولمَّا حبط العمل أتت الخسارة، هذا خسران الكفر.
  - وأيضًا قد يكون الخسران بترك العمل: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}[3]، فإن ما يخفِّف الميزان ترك العمل، إذًا خسارتهم أنفسهم كانت بسبب تركهم للعمل، وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا}[4].
  - وقد يكون الخسران بسبب ترك التواصي بالحق كليَّةً.
  - وقد يكون الخسران بسبب ترك التواصي بالصبر.

وهاتان الاثنتان يمكن أن تدخلا في آية سورة الحج: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}[5] فهؤلاء ما عندهم تواصي بالصبر، فاقدون للتواصي بالصبر، لذلك حين تأتي عليه الفتنة يقع في الهلع والجزع فيفقد دينه.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ} هذه حالته لمَّا أصابه خير.

---

(1) [سورة الأنعام: 31]
(2) [سورة الزمر: 65]
(3) [سورة المؤمنون: 103]
(4) [سورة النساء: 119]
(5) [سورة الحج: 11]

{وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ}: أي جاءه البلاء. الفتنة هذه يحتاج معها أن يصبر، ويكون معه في الناس من يصبِّره، لكنه حين تصيبه الفتنة لا يوصي نفسه بالصبر، ولا الناس يوصونه، فيقع في الهلع: {انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ}، سبب انقلابه على وجهه أنه تاركٌ للتواصي بالحق، وتارك للتواصي بالصبر.

أول واحد توصيه بالحق والصبر نفسك، فهو الآن لمَّا جاءته الفتنة لم ينظر إلى الحق، ولمَّا جاءته الفتنة لم يستطيع أن يستعمل الصبر، بل قد يكون القوم يتواصون بالضلال؛ لذلك ينقلب على وجهه!

والآن انظر إلى حال أهل الدنيا لما يختبرهم الله في توحيدهم، تجدهم يوصي بعضهم بعضًا بالدنيا، يقولون له: (حقك لا تتركه لا تضيِّعه اجرِ وراءه...) إلى آخر ما يتكلمون به، فيفتنون بعض.

المهم أن الخسران له درجات، الناس ليسوا على حدٍّ سواء في خسرانهم، فالمقصود أن الإنسان ممكن أن يخسر الإيمان كليَّة، ممكن أن يخسر العمل، ممكن يخسر التواصي بالحق، ممكن يخسر التواصي بالصبر. مهما كثر ماله وولده وثقافته وعلمه، كل هذا لا يعني شيئًا أمام أسباب الفلاح، أنت لابد أن تعرض نفسك دائمًا على هذه السورة، وترى هل أتيت بأسباب النجاة ؟!

ولذلك من المحبوب للدعاة أن تجعلوا لكم بين فترة وأخرى في خطاب العامة شرح لهذه السورة ليستطيع الناس أن يكرروا قياس أنفسهم بالدليل، فيرى كل شخص هل هو سالم من الخسارة أو لا؟ هل مؤمن حقيقة بالله وملائكته وكتبه ورسله؟ هل يعرف الله حقيقةً؟ أم أن علمه عن الله مقابل علمه بأمور الدنيا لا شيء! وأيضًا هل عَمِل صالحًا؟ والمقصود بالعمل الصالح أفعال الخير كلها؛ سواءً كانت الظاهرة أو الباطنة، سواءً كانت متعلقِّة بحقوق الله أو متعلِّقة بحقوق العباد، وسواءً كانت واجبة أو مستحبة، ما دام أنها خالصة وفيها متابعة النبي-صلى الله عليه وسلم-.

كلَّما زدت منها، ازداد لك وصف الفلاح، كلَّما نقصت، خفَّت موازينك واقتربت من الخسار، لابد أن تتصوَّر بهذه الصورة: أن أمامك ميزان، كلَّما ثقَّلته؛ اقتربت من الفلاح، وكلما تركته وأهملته وأهملت النظر فيه؛ اقتربت من الخسار.

أيضًا لابد أن يعرض الإنسان نفسه على التواصي بالحق، والمقصود به دعوة الناس إلى دين الله-عزَّ وجلَّ-، وبذل الجهد في بيان حقّ الله، وما له-سبحانه وتعالى-من كمال صفات، وبذل الجهد في بيان حق كتابه، وفي بيان حق الأنبياء، وفي بيان حق الملائكة، وفي بيان حق الله-عزَّ وجلَّ-علينا في الأعمال، وفي بيان حق الناس علينا في الأعمال، فلا تمل من أن تكرِّر وصف الله-عزَّ وجلَّ-بالكمال كما وصف نفسه، وأن تنزِّهه عن النقص، خصوصًا لَمَّا تأتي الاضطرابات والبلاءات، ويشتدُّ على الأمَّة مشاعر سوء الظن بالله، ذلك الوقت اجمع كل ما تملك من قوة، واستعن بالله، واطلب منه السداد، وكلِّم الناس عن ربك، كلمهم عن كمال صفاته، حسِّن ظنهم بالله، هذا حق لابد من بيانه.

ثم إذا وجدت معارضًا لهذا الحق: أوصِ نفسك قبل أن توصي أي أحد بالصّبر، وأنت مطلوب منك أن تُوصي نفسك وغيرك بالصبر، وهنا المقصود التواصي بجميع أنواع الصبر:

1. الصبر على طاعة الله، وأداء الفرائض، والقيام بالحقوق؛ حقوق الله وحقوق العباد، كل هذا يحتاج إلى صبر.

2. الصبر عن معصية الله؛ لأنك كما تعلم أن النفس أمَّارة بالسوء، فلابد للإنسان أن يصبر لئلا يقع في المعصية، أيضًا الصبر عن البطر عند كثرة النعم، فيصبر الإنسان عن أن يكون بطران عند وجود النعم، أو عند كثرتها.

3. والصبر على المصائب، وهو ما يصيب الإنسان على ما لا يلائمه وإن كان هو في حقه خيرٌ كثير.

المهم أن تعلم أنك محتاج أن تصبر على أنواع الصبر المأمور به.

ولذلك لابد أن نتواصى بهذا: بالحق. فإذا ظهر الحق قد يأتي أحد مع ظهور الحق يكون وصل حال من الملل. مثلًا: أحيانًا كثيرة لمَّا تأتي الأمهات يشتكين من أبنائهن؛ نقول: الآن أنت أُمرتِ بالتربية، أُمرتِ أن تقولي الكلام الصحيح الذي هو التواصي بالحق. ماذا أقول لهم؟ آمِنوا بالله، آمِنوا بكتاب الله، قوموا إلى الصلاة، افعلوا الخيرات، اتركوا المنكرات...هذا من التواصي بالحق، ثم أجد أنه لا يوجد صدى عندهم، فتأتي إحداهن تشتكي لي فتقول: أنا بقدر ما أدعوه بقدر ما يرد عليَّ. فيقال لكِ: ادعي لهم؛ لأن الله لمَّا أمركِ بتربيتهم لم يكلِّفكِ بما لا تطيقين، أمركِ بالتربية وفتح لكِ أوسع الأبواب: (باب الدعاء)، ادعي لهم أن يصلحهم الله، ينوِّر قلوبهم بالإيمان، ويزيدهم إيمانًا ويثبِّت قلوبهم على الحق، ويرشدهم إلى الصواب، ويعجِّل برشدهم، ينفعهم بما متَّعهم به من سمعٍ وبصر، ينفعهم بأن يزيدوا إيمانًا. اطلبوا الله أن يربِّيهم فيستقيموا وينتفعوا من تربية الله.

فترد على هذا الكلام قائلة: أنا أدعي لهم. نقول: نعم، أنا أوصيكِ بالدعاء وأقول لكِ: اصبري على الدعاء، لابد حين أوصيك بالحق أوصيكِ بالصبر {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[1].

لا تتصوَّر أنك ستصل إلى مرادك بمجرَّد أنك تقيّ؛ التقوى هي التواصي بالحق؛ أي أنت آمنت وعملت الصالحات وتواصيت بالحق (هذه هي التقوى)، لكن ليست التقوى فقط هي سبب رفعة منزلتك، يوسف-عليه الصلاة والسلام-قال: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ}، لابد من الصبر.

فنحن نخاطب أنفسنا قبل أن نخاطب أي أحد، تمر علينا مسائل بسيطة نجد أنفسنا فقدنا صبرنا ونقول: متى ستستقيم القضية؟! ماذا تعتقد الدنيا؟ كلَّما فُتِحَت لك فُرص، لابد أن تظهر لك نقائص.

فإذا ظهرت لك النقائص كان مطلوب منك أن تعامل هذه النقائص بصورتين:

1. اتق الله، عامل النقيصة بالتقوى. لا تعمل مخالف لِما يجب عليك، آمن بالله أنه قضاء وقدر، اعمل صالحًا بالإحسان.
2. تواصي ووصي نفسك بالحق، واعلم أنه لابد من الصبر، لابد من النقائص. أنت حينما تلتفت حولك وتجد المنكرات كالسيل الجارف، مرةً واحدة المجتمع يتغيَّر وينقلب، تأتينا حالة من الذهول ماذا نفعل؟! هؤلاء القوم الذين رُبُّوا على التوحيد ماذا حصل لهم؟! ثم تقول: لا بأس، لابد من الصبر، لا تيأس من رَوح الله، أنت اطلب لهم الله؛ قل: يا رب اهدهم، أصلحهم، استرهم، ادفع عنهم شر الأشرار، املأ قلوبهم بالإيمان، أصلح نفوسهم، هذا كله من آثار وجود الصبر في قلبك.

(1) [سور يوسف: 90]

أيضًا: أنت تحتاج إلى صبر خصوصًا مع كثرة وجود النعم حولنا، وكثرة عطايا الله بالإيمان والتقوى، ونحن الآن نجد أنفسنا عاجزين عن شكره-سبحانه وتعالى-، فإذا عاملنا هذه النعمة بالبرود، ولم نصبر على عدم البطر، ولم نستعمل الشكر، حرمنا الله. فنحتاج إلى قوة حساسية تجاه النعم، ولما تكثر النعم، صبِّر نفسك على ألَّا تبطر عليها، كُن من الشاكرين، اسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يجعلنا له من الشاكرين الذاكرين. ((رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا))[1] نسأله-سبحانه وتعالى-أن يجعلنا ممن يصبر على الطاعة، ويصبر عن المعصية، ويصبر عن البطر عند كثرة النعم، ويصبر على المصائب إذا أتت له.

قَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ. معنى قول الشافعي: لو أن الله-جلَّ وعلا-ما أنزل للبشرية ولا جعل لها طريقًا إلَّا هذه السورة القصيرة ذات الثلاث الآيات لكانت كافية؛ لأن هذه السورة رسمت للمؤمن المنهج الذي يعيشه، رسمت له طريق النجاة:

- أن تؤمن بالله.
- أن تعمل صالحًا لله.
- أن تتواصى بالحق لله.
- أن تتواصى بالصبر لله.

فلا تتحرَّك ولا تعمل، ولا تتواصى لا بالحق ولا بالصبر إلَّا من أجله؛ قد خاب وخسر من عمل الحق لغير الحق.

بهذه الأربعة تحصل النجاة، فكأن الشافعي يقصد أن هذه السورة كافية لهداية الناس، ومعرفتهم طريق النجاة.

وهذا يدل على ما للقرآن من إعجاز، آيةٌ واحدة تبيّن وظيفة الأمَّة الإسلامية كلها، ووظيفة كل فرد من أفراد الأمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-لَمَّا نقل كلام الشافعي: "وَهُوَ كَمَا قَالَ-يقصد أن كلام الإمام الشافعي في محلِّه-فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ خَاسِرُونَ إلَّا مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ مُؤْمِنًا صَالِحًا، وَمَعَ غَيْرِهِ مُوصِيًا بِالْحَقِّ مُوصِيًا بِالصَّبْرِ"[2] إذًا هذه حدَّدت العلاقة بينك وبين ربك، وبينك وبين من حولك.

فائدة: جاء في تفسير ابن كثير ما يختلف عن العبارة التي ذكرها المصنِّف هنا: جاء في تفسيره: "قال الشافعي-رحمه الله-: لو تدبَّر الناس هذه السورة لوسعتهم"، والمعنى واحد-والله أعلم-.

قَالَ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}[3]**، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ (قَبْلَ الْقَوْلِ وَالعَمَلِ):**

(1) رواه ابن ماجه (كتاب الدعاء، بَابُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، 3830) وصحّحه الألباني.

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية.

(3) [سورة محمد: 19]

قال البخاري–رحمه الله–: يقصد في كتاب العلم من صحيحه، وأفادت هذه الترجمة أن قول الإنسان وعمله لا اعتبار له في ميزان الشرع إلَّا إذا كان قائمًا على العلم؛ فالعلم شرط لصحة القول والعمل، معنى هذا أن الابتداء بالعلم هو الذي يحقِّق الاستقامة على العمل.

واستدلَّ بقوله تعالى: {فَاعْلَمْ} هذا فعل أمر؛ يجب عليك أن تعلم {أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ}، ثم يأتي العمل الذي هو الاستغفار: {واسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}، فأصبح العلم قبل القول والعمل.

الجزء الثاني:

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ المَسَائِلِ، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا}(1).

الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أحد، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}(2).

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(3)

يقول الشيخ –رحمه الله–: اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ هكذا أسلوب الشيخ وأسلوب الأوَّلين، يعني هذا الخطاب يوجَّه لكل مَن تأتي منه المعرفة والعلم، وهذا العلم يجب على كل مسلم ومسلمة، لا فرق بين المسلم والمسلمة في تعلُّم العلم الذي هو فرض عين.

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ: هذا مِن إشارة الرحمة في قلب المعلم، فالعلم مبنيٌّ على التراحم.

قال: الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا هذه المسألة تعتبر قاعدة، هذه المسائل التي سيذكرها الشيخ الثلاث تعتبر بمثابة القواعد.

قال في الأول: اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ يجب عليك أن تعلم أن العلم مطلوب، والعلم هو: مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ.

ثم قال: يجب عليك أن تعلم أن العمل به مطلوب، وأن الدعوة إليه مطلوبة، وأن الصبر على الأذى فيه مطلوبة. فيجب عليك أن تعلم هذا كله.

العلم هو دور المعلم، لكن العمل والدعوة والصبر هو دورك أنت.

أربع مسائل:

المسألة الأولى: هي العلم. وهو معرفة الله ومعرفة نبيِّه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، من الذي سيعلِّمك هذا العلم؟ المعلِّم.

(1) [سورة المزمل: 15، 16]
(2) [سورة الجن: 18]
(3) [سورة المجادلة: 22]

العمل بهذا العلم والدعوة إليه والصبر أنت من سيقوم به، فإذا كنت أنت من سيقوم به كله بقي العلم الذي سنناقشه، فبدأ يؤسس لك النقطة الأولى التي هي العلم فأسسه لك بالثلاث القواعد هذه؛ حتى إذا دخلت على: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ لا تختلط عليك المسألة.

هذه المسائل الثلاث بمثابة قواعد:

فيها معرفة **توحيد الربوبية**: أن الله هو الذي خلقنا وحده، ورزقنا وحده، ثم أنه-سبحانه وتعالى-لم يتركنا كالبهائم نأكل فقط من رزقه؛ بل شرَّفنا بأن أرسل إلينا رسولًا، هذا الرسول من بني جنسنا، أي لم يكن مَلَكًا أو جنّيًّا؛ من أجل ألَّا تحصل الوحشة، بل بشرًا، ولكن بشرًا اصطفاه الله واختاره وربَّاه تربيةً خاصَّةً؛ وأدَّبه فأحسن تأديبه، وهيَّأه لهذه الرسالة العظيمة.

إذًا وحِّد الله بالربوبية، واعلم أنه وحده هو الذي ربَّاك، ربَّاك بأن خلقك ورزقك، وربَّاك أيضًا بأن أرسل إليك رسولًا، هذا كله مِن توحيد الربوبية أن تعلم أنه وحده ربَّاك، أوجدك وأعدَّك وأمدَّك، وأنه وحده الذي سبَّب لك أسباب السعادة وأسعدك، كيف أسعدك؟ {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[1] فهداية السبيل أتت عن طريق إرسال الرسول، فإرسال الرسول من الربوبية، ربَّاه الله تربيةً خاصة وأرسله إليك، وهذا من تربيته الخاصة لك، يعني الذي يطيعه، سيتربَّى تربية خاصة، والذي يعصيه، سيبقى في التربية العامة: يُرزَق ويأكل ويشرب فقط.

قال: **فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**

هناك نوعان من دخول الجنة:

1. دخول الجنة من أول وهلة بدون عذاب أو عقاب.
2. أو دخول الجنة بعد أن استوجب شخص النار، سواء كان دخول الجنة بشفاعة النبي-صلى الله عليه وسلم-، أو تساوت حسناته وسيئاته فأُمر به إلى النار، فيشفع فيه الرسول-صلى الله عليه وسلم-فيدخل الجنة.

المهم أن هؤلاء دخلوا الجنة دون أن يدخلوا النار، أو قد يدخلون النار ولكن كما هو معلوم نار التطهير، ومآله إلى الجنة بشفاعة النبي-صلى الله عليه وسلم-أو شفاعة الشافعين الآخرين، أو بمحض رحمة أرحم الراحمين ولكن في النهاية مآله إلى الجنة.

تفاوتهم هذا الحاصل حسب طاعتهم للرسول-صلى الله عليه وسلم-، أي على حسب علاقتهم بالرسول محبةً وطاعةً واتِّباعًا سيكون الفرق، ولا تنسى أن محبَّة الرسول تابعة لمحبة الله.

إذًا كل مَن كان تقيًّا، كان وليًّا، كل المؤمنين أولياء لله لكن الأولياء درجات، وهذا يظهر من طاعة الرسول-صلى الله عليه وسلم-وأنت بعينك ترى اختلاف الناس في طاعتهم وفي مبلغ طاعتهم.

وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ: لأن معصية النبي-صلى الله عليه وسلم-معصية لله تبارك وتعالى، لهذا أتى الحديث: ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى))

(1) [سورة الإنسان: 3]

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟

قَالَ: ((مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى))[1]، إذًا عصيان الرسول-صلى الله عليه وسلم-إباء لدخول الجنة.

وليس كل من عصاه على مستوى واحد، بل هم درجات:

- هناك من عصاه فهو خالدٌ مخلَّد. وهؤلاء الذين يكون عصيانهم بالكفر والشرك الأكبر، أو النفاق الاعتقادي.
- أو يدخلون نار التطهير، وهم القوم الذين يكون عصيانهم أقل من الشرك الأكبر، أو الكفر، أو النفاق الاعتقادي.

يجب عليك أولًا أن تعرف الله ونبيَّه ودين الإسلام قبل أن تدخل إلى هذه المعلومات التفصيلية عن: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ لابد أن تؤسِّس هذا الأمر في نفسك، أنت تقول: المطلوب مني أن أعرف الله وأعرف نبيَّه وأعرف الدين لماذا؟ افهم أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا بل أرسل إلينا رسولًا من أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار؛ لأجل ذلك مهم جدًا أن تعرف من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وأتى بالدليل، ووجه دلالته: أن من أطاع النبي-صلى الله عليه وسلم-دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، أتى بقوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ} يعني يا قريش أرسلنا إليكم {رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا} الرسول الأول هو محمد-صلى الله عليه وسلم-، والرسول الثاني موسى-عليه السلام-، والقومين هما: قريش مع النبي-صلى الله عليه وسلم-، وفرعون مع موسى، {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} حصلت منه المعصية {فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا}، أنتم يا قريش انظروا إلى حالكم إذا عصيتم الرسول أخذكم الله أخذًا وبيلًا، إذا أطعتموه نفعكم الله بطاعته.

المسألة **الثَّانِيَةُ: أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أحد، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ** إذا علمت هذا: أن الله لا يرضى أن يكون شريكه في العبادة مَلَك مثل جبريل، لا يرضى الله أن تدعو جبريل، ولا أن تستغيث بجبريل، ولا تذبح تقرُّبًا لجبريل، وأيضًا يمنع عليك أن تستغيث بالنبي أو تدعوه، أو تذبح له؛ فما بالك بغيرهم؟!

على ذلك لابد أن تفهم أن باب الإشراك لا فرق بين أن يُشرك به إنسانًا صالحًا أو طالحًا، ملكًا أو نبيًا أو جنيًّا أو إنسيًّا أو شيطانًا أو حجرًا أو شجرًا، كلهم على حد سواء لا فرق بينهم؛ لأن العبادة حقٌّ محضٌ لله، لا يستحقه أحد.

المشكلة أتت من أن أناسًا كثيرين لا يفرِّقون بين حق الله وحق النبي-صلى الله عليه وسلم-وحقوق الصالحين، يخلطون. لا يعرفون ما هو حق الله على العباد، وما هو الواجب بالنسبة للرسول-صلى الله عليه وسلم-على المؤمنين، وما هو الواجب على المؤمنين نحو صالحي عباد الله. اليوم دور طلبة العلم التفريق بين الحقوق، هذه هي دعوتنا اليوم غالبها دعوة تصحيح: تصحيح العقيدة وتصحيح العبادة.

(1) رواه البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، 7280).

لو مررت على آية الإسراء التي ذكرها الشيخ في كتاب التوحيد يقول الله-عزَّ وجلَّ-فيها: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلًا}[1]، أي أنهم لا يستطيعون فعل شيء، أتت الآية التي بعدها : {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}، أي أن من تدعونهم هم بأنفسهم يدعون الله يبتغون إليهم الوسيلة، فهنا الكلام عن الصُّلَّاح.

فمطلوب منك أن تنظر إلى الصُّلَّاح نظرتين:

- نظرة أنهم جميعًا متساوون في عدم استحقاقهم للعبادة، لا حجر لا شجر لا نبي لا ملك، كلهم متساوون: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ} كلهم {فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلًا}.
- نظرة أخرى أنهم مختلفون في تقرّبهم وفي توسّلهم إلى الله، {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}، فعُلِم من هذا أن كل أحد دون الله متساوون في عدم استحقاقهم للعبادة؛ لكنهم مختلفون في درجة تقرُّبهم إلى الله.

استشهد لهذا بدليل: **وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** وجه الشاهد: {أحدًا}: أي أحد؛ لأنه لفظة (أحدًا) نكرة واقعة في سياق النفي، أو في سياق النهي، أي لا تدع مع الله أحدًا، النكرة إن وقعت في سياق النفي أو في سياق الاستفهام الإنكاري تفيد العموم.

إذًا المطلوب: فلا تدع مع الله أحدًا كائنًا من كان، لا تستغيث بأحد كائنًا من كان، لا يفزع قلبك لأحد كائنًا من كان، لا تلجأ في مصابك لأحد كائنًا من كان غير الله، لا تدعوهم، لا تذبح لهم، لا تنذر لهم، لا يفزع قلبك لهم.

لكنهم-هؤلاء الصُّلَّاح-يمكن أن يُحَبُّوا في الله، الأنبياء المرسلين، الصالحين، كلهم نحبهم في الله-عزَّ وجلَّ-، نحبهم لأن محبَّتهم عمل صالح نتقرَّب به إلى الله، لكن لابد أن تفهم أن محبَّتهم شيء ودعوتهم والاستغاثة بهم والفزع لهم أمر مغاير، حبهم في الله طاعة، وحبهم مع الله شرك.

لابد أن تفرِّق بين الحب في الله، والحب مع الله. إذا أحببت الصالحين في الله، لأجل الله، يعني ما أحببته إلَّا لكونه صالحًا تقيًا ملتزمًا متمسِّكًا بدينه، هذا عمل صالح تتقرَّب به إلى الله، لكن لا تعظِّمه في نفسك، لا تكبِّره، لا تتصوَّر أنه مرغوب محبوب، لا يكون رضاه مطلب، لا تَغْلُ فيه، لا تصل لدرجة أنك تحبه مع الله؛ عامله معاملة المخلوقين مع اعتقاد أنه سبب للقربة إلى الله. فمقصدك الله، فلا تجهر باسمه، ولا تتكلَّم عنه كلام من تعلَّق فلا يرى غيره، احذر من هذا.

الجملة الثالثة قال: **أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ**: هذه المسألة تابعة للمسألة الماضية.

المسألة الماضية: إذا علمت أن الله-عزَّ وجلَّ-خلقك ورزقك وأرسل إليك رسولًا، وجب عليك طاعة الرسول؛ واعلم أنك لو أطعته دخلت الجنة، ولو عصيته دخلت النار. أهم شيء يقوله الرسول: ألَّا تدعُ غير الله. وهذا الرسول نفسه-سواءً الرسول الملكي أو الرسول البشري-لا يحب الله-عزَّ وجلَّ-منك أن ترفعه عن مكانه، بل المطلوب منك أن تعلم أن الله-عزَّ وجلَّ-لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته أبدًا، فالمطلوب منك أن تكون علاقتك مع الرسل والأنبياء والملائكة: علاقة حب في الله وليست علاقة حب مع الله.

(1) [سورة الإسراء: 56]

فإذا كان ممن **أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ، لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ**. هنا كأنَّه كلام حول مسألة الولاء والبراء، وهذا أصل مهم جدًا، وهذا الأصل عدم فهمه وتأسيسه والاعتدال فيه، أدَّى أن يأخذ المسلمين تشريقًا وتغريبًا، وخصوصًا منهم طلبة العلم.

مطلوب منك أن تحب في الله، وتبغض في الله، وأن تحب لله، وتحب من يحبه الله، وتحب ما يحب الله. فإذا كنت موحدًا مطيعًا للرسول؛ إن صحت منك هذه الدعوة ستمنعك أن تحب من كان لله عدوًّا، من يشاقق الله، من ينازع الله في مُلكه وفي استحقاقه للألوهية، من يتعلَّق أو يعظِّم غير الله، ولو كان هذا أقرب قريب.

لو كنت صادقًا في دعوى الإيمان بالله ورسوله ورأيت قريبًا محادًّا ومشاقًّا لله ولرسوله، وجب عليك أن تتبرأ منه، واستشهد بقوله تعالى: {**لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**} مودة من حاد الله ورسوله دليل على نفي الإيمان.

لكن ننبِّه هنا تنبيه: الفرق بين الموالاة والمعاملة:

الموالاة هي المحبَّة القلبية، لا يجوز لك أن تحب كافر وتودَّه كائنًا من كان.

لكن هناك فرق بين محبتك له ومعاملتك له، فلو قلنا: إن هذا الكافر يقف جانبك في الطريق وهو كبير في السن يريد أن يقطع الطريق والسيارات مسرعة وأنت شاب صغير، لو أخذت بيده فقطعت به الطريق، تكون أحسنت إليه.

لكن ليس شرطًا في الإحسان المحبة، المحبة تولد الرضا عن الأعمال، وتولد الأنس، فكيف تأنس بمن يبغض الله أو يبغض أن يكون الدين كله لله؟!

هذه النقطة تحتاج إلى إفراد في النقاش: مسألة الولاء والبراء، وتأسيسها، والاعتقاد فيها، والتوازن، حتى أن هذه المسألة تؤثر كثيرًا على طلبة العلم ويدخل فيها الهوى، وليس شرطًا موالاة ومعاداة الكفار، حتى المسلمين هناك إشكالات في مسألة موالاتهم ومعادتهم.

قال المؤلف رحمه الله:

"اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون}[1]"

بعدما ذكر الشيخ أنه يجب علينا معرفة أربعة أمور:

1. يجب عليك أن تعرف أنه مطلوب منك العلم.
2. ويجب عليك أن تعرف أنه مطلوب منك العمل.
3. ويجب عليك أن تعرف أنه مطلوب منك الدعوة.
4. ويجب عليك أن تعرف أنه مطلوب منك الصبر.

هذه الأمور التي يجب عليك أن تعرفها، وتتعامل معها.

سيكون من اختصاص المعلِّم أن يعلِّمك المسألة الأولى، التي هي معرفة الإنسان لربه ودينه ونبيه، والعمل والدعوة والصبر هذا عملك أنت، فإذا تبيَّن لك هذا، سنبتدئ في الشروع فيما يجب على المعلِّم تعليمه لطلَّابه، وهؤلاء طلَّابه هم معاشر المسلمين عمومًا.

أول ما يجب عليَّ أن أعلِّمك:

"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ المسائل"

أول شيء أعلِّمك: يجب عليك أن تعرف أنه مطلوب منك أن تتعلَّم عن الله، وعن النبي، وعن دين الإسلام، إذًا أول شيء يجب أن تعرفه هي هذه الأمور الثلاثة:

"أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ؛ دَخَلَ النَّارَ"

لماذا تسمع هذا الكلام المسألة الأولى؟ لكي تعتني بهذا الأمر الذي أنت داخل إلى تعلُّمه، يجب عليك أن تتعلَّم هذه المسائل؛ لأن وراءها جنةً أو نارًا، وطريق الوصول إلى الجنة هو: النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، وإذا علَّمناك ما علَّمناك فلن يكون إلَّا متابعة لسنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-.

أسأل الله بمنِّه وكرمه أن يجعلنا ممَّن يتمسَّك بالسنَّة ويدفع عنها؛ فيكون ممَّن يفوز بالشرب من حوض النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-.

فإذا علمت هذا: "أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا"، واستقرَّ في قلبك توحيد الله بالربوبية، فلا بد أن تعلم ما يجب عليك من توحيد بالألوهية، فماذا يجب عليك من توحيد الألوهية؟

يجب أن تعلم: "أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ"، أن الله-عزَّ وجلَّ-لا يقبل أن يُشرك معه أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فعلى هذا وجب عليك أن تعلم أن معرفتك للرب المطلوبة منك يجب أن تُبنى كالتالي:

(1) [سورة الذاريات : 56]

اعلم "أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا"، ومن تربيته لنا "أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ؛ دَخَلَ النَّارَ" وأن الرسول لمَّا أتى بما أتى به، أهم شيء علَّمنا إياه "أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ"، واعلم أنك لن تكمل توحيد الربوبية وتوحيد الألوهيَّة ومتابعتك للنبي-صلى الله عليه وسلم-إلا أن تصْرِف ولاءك وبراءك لمن تعلَّقت به وعظَّمت (وحَّدت).

هذه المسائل الثلاثة لابد أن تتصوَّر أنها ليست بِدْعًا من القول، وليس أمرًا يخصُّ قوم دون قوم، بل: "اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[1]".

فإذا تكلَّمنا عن دين إبراهيم-عليه السلام-وهو الدِّين الذي لا ينكره أحد لا من اليهود ولا النصارى ولا المسلمين، كلهم يعلمون وجوده وصحَّة دينه، فإذا علمت أنَّ ملَّة إبراهيم ممَّا اتَّفق عليه؛ يظهر لك أنَّ ملَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-تابعة لملَّة إبراهيم لا تخالفه، وهي أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ.

وجميع الناس من آدم إلى قيام الساعة مأمورين بعبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا خلق الله الخلق، فالرسول الذي أُرسل إليك الذي إذا أطعته دخلت الجنة وإذا عصيته دخلت النار، أتاك بما أتى به إبراهيم-عليه السلام-.

الآن ننتقل إلى الشرح التفصيلي لهذه الجملة:

بدأ الشيخ-رحمه الله-بـ " اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ":

- وهذا دعاء لطلَّاب العلم فيه الرحمة والشفقة بهم.

- وفيه الدعاء بأن يُرشدك الله لطاعته، وهذه أعظم المواهب: أن تجد في قلبك انشراح للطاعة ومحبَّةً لها، ولا يشرح قلبك للطاعة ولا يقوِّيك لها إلَّا ربُّ الأرباب، مُجْري السحاب، محرِّك القلوب والأعضاء لطاعته، نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يُرشدنا لطاعته، وأن يملأ قلوبنا محبَّة له ولعبادته.

- و "أَرْشَدَكَ": معناها دلَّك وهداك إلى الرُّشد، والرُّشد: هو الاستقامة على طريق الحق، وهو ضدُّ الغيِّ.

- "أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ": يعني أرشدك الله أن تستقيم على أوامره وعلى اجتناب نواهيه.

- "الْحَنِيفِيَّةَ": هي ملَّة إبراهيم-عليه السلام-ولهذا جمع المصنِّف-رحمه الله-بينهما، قال: "اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ" وهي أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ.

و "مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ".

أصبح هذا من باب عطف البيان، كأنك تقول: الحنيفيَّة يعني ملَّة إبراهيم، فالحنيفيَّة هي ملَّة إبراهيم، وملَّة إبراهيم هي الحنيفيَّة.

---

(1) [سورة الذاريات: 56]

الحنيف: المقصود به المائل عن الشرك قاصدًا التوحيد، والحنيف هو المُقْبل على الله، المُعرض عن كل ما سواه، الحنيفيَّة وملَّة إبراهيم: هي أن تعبد الله مخلصًا له الدين.

وفي هذا بيان لحقيقة ملَّة إبراهيم: أن تكون عابدًا مُظهرًا الذُّلّ، ويكون حال قلبك وقت عبادتك لا يقصد إلَّا رضا الله والدار الآخرة، لا تقصد بعملك لا رئاسة ولا جاه ولا أي شيء من حُطام الدنيا، إنَّما تريد رضا الله، وتريد الحصول على الثواب الذي رتَّبه الله لك، فالإخلاص هو روح العبادة.

قال الشيخ: "وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ".

يعني بالعبادة الخالصة أمر جميع الناس وخلقهم لها، واستدلَّ بقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون}[1] الآية تدل على أن الله خلق الجن والإنس جميعًا لعبادته، وإذا كان خلقهم لعبادته، فمن المؤكَّد أنه أمرهم بها.

"وَمَعْنَى {لِيَعْبُدُون}: يُوَحِّدُونِ"، هذا تفسير لمعنى العبادة في الآية، وهذا التفسير للعبادة بالتوحيد يتبيَّن جليًّا في الباب الأول من كتاب التوحيد، يقول فيه الشيخ: "كتاب التوحيد وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون}" فالعبادة هي التوحيد، وأدلَّة ذلك متكاثرة في كتاب الله-عزَّ وجلَّ-، وفي سنة نبيِّه-صلَّى الله عليه وسلَّم-، وفي فهم السلف:

فإذا راجعت تعليق البخاري في صحيحه أو ما نقله في كتاب التفسير على هذه الآية لوجدت السلف يقولون: {إِلَّا لِيَعْبُدُون} أي إلَّا ليوحِّدون.

وفي الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي-رحمهما الله-وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر-رحمه الله-والألباني-رحمه الله-، يبيِّن هذا الحديث الوظيفة التي أنيطت بهذا المكلَّف، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ))[2]، فهذا الحديث يدلُّ على وظيفة العباد في عبادة الله، وهذا أبدًا لا يُخالف السعي في الحياة، بل الحياة مدرسة كبيرة بالتوحيد، تتعلَّم فيها التوحيد، وتُختبر فيها على التوحيد، فكل ممارساتك في الحياة والحصول على الرزق تدور حول توحيد الله.

يقول الشيخ: "وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ".

يُبيِّن الشيخ في هذا الموطن أهمية مسألة توحيد الألوهية، فإذا رجعنا إلى الجمل بعدما قرَّر توحيد الربوبية: "أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ؛ دَخَلَ النَّارَ". وقرر توحيد الربوبية، ثم قرر الألوهية وهي: "أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ".

ثم قرَّر الولاء والبراء المبني على الألوهية وعلى الربوبية، أي المبني على توحيد الله، ثم أتى يبيِّن لك قيمة توحيد الألوهية، قال: "اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ".

---

(1) [سورة الذاريات: 56]

(2) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني.

فهذه الحنيفية هي معنى الألوهية، هي معنى: "**أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ**"، أرسل لك رسول حتى يعلِّمك العبادة، والرسول أول ما علَّمك: "**أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ**"، ثم إذا أردت مزيد بيان: "**اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ:**" هي التوحيد أيضًا "**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**"، واعلم أيضًا أن: "**أَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ**".

فإذا قيل لك: بيّن لي أهمية توحيد الألوهية؟ ستقول:

- إن توحيد الألوهية الذي أتت به الرسل هو ملَّة إبراهيم المتَّفق عليها: أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا.
- وهذه العبادة التي هي عبادة الله وحده ولا نشرك به شيئًا هي التي من أجلها خلق الله الخلق.
- وهي أول الأوامر وأعظمها، أعظم ما أمر الله به التوحيد: وهو إفراد الله بالعبادة.

فأعظم الأوامر: هو التوحيد، وأعظم النواهي: هو الشرك.

- فإذا علمت أن التوحيد هو ملَّة إبراهيم.
- وإذا علمت أن التوحيد هو الذي من أجله خلق الله الخلق.
- وإذا علمت أن التوحيد هو أعظم الأوامر.

تبيَّنت لك قيمة التوحيد؛ فاجتهدت أن تبني معرفتك لربك ولنبيك وللإسلام على هذا الذي علمت أهميَّته.

تفصيل الجملة:

معنى "**أَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ**":

كما هو معلوم هنا يقصد بالتوحيد توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بالعبادة؛ وهو التوحيد الذي بُعثت الرسل لتحقيقه، وهذا التوحيد يكون دائمًا على رأس المطلوبات، فانظر إلى:

- آية الإسراء كيف أنه كان أول مطلوب {أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ}[1].

- وأعظم ما نهى الله عنه الشرك، والشرك ضد التوحيد، وكان أعظم ما نهى الله عنه؛ لأن أعظم الحقوق حق الله، فإذا أشرك مع الله غيره، ضيَّع أعظم الحقوق، وفي حديث ابن مسعود قال: سألتُ رسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-أي الذنب أعظم؟ -وفي لفظ: أكبر- قال: ((أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ))[2]، فأعظم ما نهى الله عنه، أعظم الذنوب، أعظم الجرائم أن تشرك مع الله أحد، وفي الحديث: ((أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟)) قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا))[3] فهذا حق الله على العباد، فإذا ضيَّع العباد حق الله، ارتكبوا أعظم الجرائم، لذلك أعظم الحقوق هو التوحيد، وأعظم ما نُهي عن تضييعه هو التوحيد، فكان الشرك من أعظم المنهيات.

---

(1) [سورة الإسراء: 23]

(2) رواه البخاري (كتاب التفسير، باب قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، 4477).

(3) رواه البخاري (كتاب التوحيد، باب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، 7373).

ما هو الشرك؟ قال: "**وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ**". هذا تعريف الشريك: هو أن يجعل مع الله إلهًا آخرًا، ملكًا أو رسولًا أو وليًّا أو حجرًا أو بشرًا، يُعبد كما يُعبد الله: بدعائه، بالاستعانة به، بالذبح له، بالنذر له، المهم بأن يلتفت القلب معظِّمًا متعلِّقًا بغير الله، وسيأتينا تفصيل معنى الشرك إن شاء الله.

قال: **والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا}[1].

هذه الآية جمعت بين الأمرين:

1. الأمر بالعبادة.
2. والنهي عن الشرك.

ودلالتها واضحة في أن العبادة لا تتم إلَّا باجتناب الشرك، قليله وكثيره؛ لأن {شَيْئًا} نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم، أي: لا شركًا أصغرًا ولا أكبرًا، ولا ملكًا، ولا نبيًّا، ولا وليًّا، ولا غيرهم من المخلوقين، لا صلاة، ولا توكُّل، ولا دعاء، ولا أي شيء من حقوق الله في العبادة تُصرف لغيره، وإن كان هناك فرق بين الشرك الأصغر والأكبر، لكن في النهاية منهي عن كل الشرك.

إلى هنا كل هذا مقدمة يبنى عليها معرفتك لله ولنبيِّه ولدينه.

س: لماذا دائمًا الحنيفيَّة تلاصق سيدنا إبراهيم مع أن كل الأنبياء مائلين عن الشرك؟

ج: الذي يظهر والله أعلم أن إبراهيم-عليه السلام-أبو الأنبياء، وُصِف في كتاب الله أنه حنيف، فملَّته هي الحنيفيَّة، فاشتهر بها بين كل الأمم بأنه حنيف، واشتهرت ملَّته بالحنيفيَّة، ثم أتى من بعده من الأنبياء على الملَّة الحنيفيَّة فهو متقدِّم عليهم، حامل للواء الحنيفية وهم له أتباع.

وإذا بحثت في السنَّة ربما وجدت دين النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-بأنه على الحنيفية السَّمحة، فلا يكون وصفًا خاصًّا لإبراهيم-عليه السلام-، لكنه وصفًا مشهورًا له.

ندخل في الكلام على أصل الرسالة:

قال الشيخ -رحمه الله-:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ:

1. **مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ**
2. **وَدِينَهُ**
3. **وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.**

(1) [سورة النساء: 35]

انتقل المصنِّف إلى تفصيل ما أجمل من الأصول الثلاثة وهي: معرفة العبد ربه ودينه ونبيَّه-صلى الله عليه وسلم-، وما تقدَّم من الكلام فهو من باب التوطئة والتمهيد لما سيأتي.

واستخدم في مقدمة الرسالة طريقة السؤال والجواب، وهذه الطريقة سلكها الشيخ-رحمه الله-في كثيرٍ من رسائله، وهي نافعة في تقرير المعلومات، وفي سرعة فهمها؛ لأن المخاطب إذا طرح عليه السؤال، استعدَّ وتهيَّأ لفهم الجواب.

الشيخ ذكر المسألة بصيغة السؤال والجواب لأنها مسألة عظيمة، فهذه الأصول الثلاثة مسائل عظيمة؛ لأنها هي التي يُسأل عنها الإنسان في قبره، يسأله الملكان: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فمن عرف هذه الأصول وعمل بمقتضاها، فهو أهلٌ لأن يوفِّقه الله تعالى في جوابه، ويدخل في باب التثبيت الذي يرزقه الله لمن شاء من عباده: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}[1].

"فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟"

هذا شروع في مناقشة الأصل الأول، والجواب:

"فَقُلْ: رَبِّيَ الَّذِي رَبَّانِي"

وأصل كلمة (رب) في اللغة: بمعنى المُربِّي، ومن هذه الكلمة تشعَّبت معاني أخرى لكلمة الرب، مثل: المالك والمدبِّر والمتصرِّف، الشيخ بيَّن فقال: "رَبِّيَ الَّذِي رَبَّانِي"، فتكلَّم عن المعنى الأساسي لهذه الكلمة وهو التربية.

ومعنى (ربّاني): أي أوجدني، أعدَّني، وأمدَّني.

"وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ"

هذا تعميم واضح المقصد: ربَّاني أنا، وربَّى جميع العالمين بنعمته، أي أن العبد في بحرٍ من نعم الله-عزَّ وجلَّ-لا يستطيع أن يمسك بأولها ليأتي لتاليها.

فإذا نظرت إلى نعمة الإيجاد، ونعمة الإعداد، ونعمة الإمداد؛ تعجَّبت!

وإذا نظرت إلى نعمة الهداية، ونعمة الإسلام، ونعمة الأمن، ونعمة الإيمان، ونعمة الحفظ؛ تعجَّبت!

فالعبد في بحرٍ من العطايا، يعيش العبد ويُجري الله-سبحانه وتعالى-له من الأرزاق بالأسباب ما قضاه وقدَّره له.

فإذا تبيَّن للعبد أن الله هو الذي ربَّاه وربَّى جميع العالمين بنعمه؛ لابد أن يترتَّب على هذا أن يكون هو المستحق للعبادة، قال:

"وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ"

لأن الذي يستحقّ أن يكون معبودًا هو المُنعِم القادر على الخلق، مَن لا يقدر على الخلق لا يستحق أن يكون معبودًا: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}[2].

(1) [سورة إبراهيم: 27]

(2) [سورة الفرقان: 3]

هذه الآية التي هي آية الفرقان ذكرها الله تعالى في سياق ذكر أوصاف الآلهة التي لا تصلح للعبادة، فذكر الله-سبحانه وتعالى-سبعة أوصاف كلها أوصاف نقص تدلُّ على أن هذه الأوصاف التي وجدت في الآلهة لا تصلح بذلك معها للعبادة؛ لأن المعبود هو الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[1].

إذًا هذا الاستنتاج: "وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ" مبنيٌّ على العقل، فالعاقل يدرك أن لا منَّة إلَّا من صاحب المُلك، فمن لا يملك لا يستطيع أن يمُنَّ على أحد بشيء، ومن ثمَّ لا يستحق أن يُشكر على شيء، فالعبادة هي الشكر، فمن أعطاك تشكره: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا}[2]، فمن وهبك المواهب، وأعطاك العطايا؛ لابد أن تجمع قلبك على شكره دون من سواه.

ثم أتى بالدليل النقلي، والدليل النقلي مبنيٌّ على الدليل العقلي، يعني استشهاده بهذا الدليل النقلي واختياره له مبنيٌّ على أن تفهم الجملة السابقة، فهو يقول: "رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ"، أي: فإذا كان هو الذي ربَّاني إذًا هو الذي يجب أن أشكره، ويقع في قلبي الثناء له، واعتقاد أنه هو المستحق لجمع قلبي على الثناء له، وأنا أرى في تحرُّكات حياتي آثار عطاياه، وأرى في حياتي آثار كمال صفاته، لذلك هو معبودي الذي أُثني عليه وأشكره وأحمده؛ لما أجد بعدد أنفاسي من آثار كمال صفاته، ولما أجد من جميل إنعامه.

قال:

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين}[3].

فالدليل على أن الله هو المستحق للعبادة لكونه سبحانه مربِّيًا لجميع العالمين قوله تعالى: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين}

فالحمد: هو الاعتراف للمحمود بصفات الكمال مع محبَّته وتعظيمه، وهذا قيد أساسي في الحمد، فلو اعترف بالمحامد والأوصاف وذكرها لكن بدون محبَّة ولا تعظيم فإن هذا لا يسمَّى حامدًا.

{الْحَمْدُ للهِ} اللام: لام الاستحقاق، وقوله: {للهِ} أي: هذا الحمد الذي يستحقه الله لا يستحقه غيره.

{رَبِّ الْعَالَمِين}: أي خالقهم، مدبِّر شؤونهم، والمتصرِّف بأحوالهم وأرزاقهم: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْر}[4]، فتبيَّن من هذا أنه-سبحانه وتعالى- له الحمد كله، والثناء كله، والتعظيم كله؛ لأنه رب العالمين لكونه مربِّيًا لجميع الخلق.

ثم أتى الشيخ بجملة قال فيها:

"وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ"

عالَم: أصلها العلامة، والمقصود: أن كل المخلوقين علامة ودلالة على الله، علامة: أي عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات، سمِّي العالم عالم؛ لأنه علامة على خالقه وموجده ومالكه، فإذا كان كل ما سوى الله عالم أي علامة على الله، وأنا من بين هذا العالم علامة على ربي الذي ربَّاني؛ عُلم من ذلك أنه لا أنا ولا كل ما هو علامة على الله يُصلح أن يُصرف له الحمد والثناء المطلق.

---

(1) [سورة الأعراف: 191]

(2) [سورة سبأ: 13]

(3) [سورة الفاتحة: 2]

(4) [سورة الأعراف: 54]

"فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟"

هذا السؤال الثاني بعد من ربك؟ أي بمَ استدللت على معرفتك ربك؟

"فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ"

هذا الدليل على أنه هو الذي خلقني، وهو الذي رزقني، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواه.

والآية في اللغة: لها معاني كثيرة، منها: البرهان والدليل.

فالآيات نوعان:

النوع الأول: آيات شرعية، ويُراد بها: الوحي الذي أُنزل على الرسل {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ}[1]

فالمنزَّل آيات، فيمكن أن يكون بعض الناس عرفوا ربهم بآياته الشرعية، فكيف يكون الوحي دليلًا وبرهانًا على الله؟ **له وجوه:**

- الوجه الأول: أن هذا الوحي الذي جاءت به الرسل جاء وحيًا متكاملًا منتظمًا لا تناقض فيه ولا اضطراب {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}[2]، فالقرآن الكريم لمن صدق في إرادة الحق دليل على وجود الرب.
- الوجه الثاني: أن هذه الآيات الشرعية قامت بمصالح العباد وهي كفيلة بسعادتهم، وأنت تجد في الواقع أن العالم يدور حول نفسه في حل مشاكله ثم يعود فلا يجد حلًا إلَّا قال الله وقال رسوله.

هذا من جهة أن الوحي دليل وبرهان على الله.

النوع الثاني: الآيات الكونية، مثل: السماوات والأرض، والإنسان، والحيوان...

والشيخ-رحمه الله-قال: يعرف "بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ" فلو فسَّرت الآيات بالآيات الكونية؛ لابد من فارق بينها وبين المخلوقات، ذكر الشيخ صالح آل الشيخ-حفظه الله-في شرحه للأصول الثلاثة فارق لطيف، قال: "الآيات: هي ما يُدَّل، والمخلوقات: هو الثابت مما خلق الله".

فأصبحت الآيات مخلوقات أيضًا، لكنها مخلوقات يحصل لها تبديل، قال:

"مِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ"

فالليل والنهار والشمس والقمر فيها دلالة لطيفة ألا وهي التغيير والتبديل، تدل على وجود الرب-سبحانه وتعالى-وعلى تفرُّده بالربوبية والألوهية بسبب التغيير الحاصل فيها، تعاقبهما، اختلافهما في الطول والقصر، هذه كلها أدلة على أن هناك حركة، فليس الليل سرمدًا ولا النهار سرمدًا، ولا الصيف ولا الشتاء، وهذا يدخل فيه الشمس والقمر، فأنت تجد فيهما جريانهما باستمرار، وترى فيهما الانتظام البديع، الشمس تسير في فلكها لمدة سنة وهي كل يوم تطلع وتغرب، والقمر يبديه الله-عزَّ وجلَّ-كالخيط ثم يُكمله ويُكمله إلى أن ينتهي إلى إبداره وكماله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى، فكل هذا التحرُّك والتبديل يدل على أن

---

(1) [سورة الحديد: 9]

(2) [سورة النساء: 82]

هناك محرِّك ومبدِّل، فهذا يكون معنى الآيات، استدللت على كمال ربوبيته ومن ثم استحقاقه للألوهية مما ترى من تغيير في مثل هذه الأشياء.

والمخلوقات ذكر الشيخ مثال عليها المخلوقات العظيمة مثل:

"وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ، وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا"

وهذا كله أمر تستطيع إدراكه بحواسك، وهو الذي يُقصد به الآيات الكونية.

ثم ذكر الشيخ الأدلة على هذه الاستدلالات:

"وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}(1)".

وأخذ هذه الآية بالذات لأن فيها نهي عن السجود لهذه المخلوقات والآيات: {لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ}، وأمر بالسجود لله {وَاسْجُدُوا لِلَّهِ}، لماذا؟ ظهر التعليل في الآية؛ لأنه هو {الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، فخصُّوه بالعبادة وإخلاص الدِّين لله، هذا كله في سياق الكلام حول الآيات والمخلوقات التي بها نعرف الله.

قال الشيخ: **"وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ}(2)".**

معنى المعبود: أي المُستحق لأن يُعبد دون سواه، خرج الشيخ من هذا كله: أنَّ الله هو مربِّي العباد، فإن الرب هو الذي يستحق أن يُعبد.

"وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ" يعني: هو المستحقّ لأن يُعبد دون من سواه.

واستدل بهذا الدليل:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ} خطاب لجميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم.

أمرهم بالعبادة {اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ} أطيعوه، تذلَّلوا له.

{الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} يعني: اعبدوه لأنه خلقكم والذين من قبلكم، هذه علَّة الأمر بالعبادة.

الرب هو المعبود، والدليل: {اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} فالرب الذي خلقكم والذين من قبلكم هو الذي يستحق أن تعبدوه، أن تؤمَروا بعبادته.

ثم ذُكر شيء من خلق الله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء}(3) إلى آخر آية البقرة إلى أن نصل لقوله: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}، أي: لا تجعلوا له أشباه ونظائر تصرفون لهم العبادة أو شيئًا منها، {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}: وأنتم تعلمون أنه لا يُماثل

(1) [سورة فصلت: 37]
(2) [سورة البقرة: 21]
(3) [سورة البقرة: 22]

الله في فعله ولا في خلقه ولا في عطائه ولا في رزقه ولا في رحمته ولا في عفوه، ولا في منَّته.. فكيف تشبِّهون الناقص من كل وجه بالكامل من كل وجه؟! كيف يقع في نفوسكم أن تسمحوا لها أن تكون دنيَّة، تتعلَّق بالناقصين وتترك العليَّ العظيم؟!

فجمعت هذه الآية بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة من سواه.

وهذه الآية أحد البرهانين العقلية التي أبطل الله بها اتخاذ المشركين للآلهة، فالقرآن ذكر بُرْهانين عقليين على إبطال الشرك:

1. البرهان الأول: مفهومه العام، إذا كنتم تقرُّون بأنَّ الله هو الخالق المالك الرازق؛ فيلزمكم أن تعترفوا بوحدانيَّته في العبادة ولا تكونوا متناقضِين: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}[1] فيكون جوابهم: {اللهُ}، ثم يصرفون العبادة إلى غير الله! هذا البرهان الأول، يعني: إذا كنتم تقرُّون بالربوبية؛ يلزمكم أن تعترفوا بالألوهية.

2. البرهان الثاني في كتاب الله: أن الآلهة المعبودة من دون الله ليس لها ما يخوِّلها للعبادة، يعني: ذكر نقائص الآلهة من دون الله، فإذا كانت ناقصة من جهة الصفات؛ إذًا لا تستحق العبادة.

قال بعدما ذكر آية سورة البقرة:

"قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ".

يعني: هذه العبارة ذكرها ابن كثير عند تفسيره لآية البقرة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ}، والآيات المذكورة دلَّت على ذلك، أنه لا يستحقُّ العبادة؛ إلَّا من كان لهذه الأشياء خالقًا.

من هذه الكلمة (الْعِبَادَةِ) قال:

"وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى".

من هنا بدأ الكلام عن العبادة التي أمرنا بها.

هو الآن لا يقصد الكلام عن العبادات، لمَّا عدَّد لك العبادات يقول لك: إن هذه العبادات كلها –هذه الجملة المهمة–"كُلُّهَا للهِ تَعَالَى"، يعني: كل أنواع العبادة مما ذكر وغيره يجب أن تكون لله–عزَّ وجلَّ–.

ثم ذكر دليلين، دليل عام على أن العبادة كلها يجب أن تكون لله.

"وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}"[2].

ثم أتى بجملة أخرى قال:

"فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[3]".

---

(1) [سورة يونس: 31]

(2) [سورة الجن: 18]

(3) [سورة المؤمنون: 117]

الشاهد: {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} سمُّوا كافرين، والله-عزَّ وجلَّ-لا يفلح عنده الكافرون، لذلك من صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشركٌ كافر.

مرة أخرى...

السؤال يقول: من ربك؟ فتجيب: ربي الله الذي ربَّاني وربَّى جميع العالمين بنعمه.

وإذا كان هو الذي ربَّاني وربَّى جميع العالمين بنعمه؛ فهو معبودي ليس لي معبودٌ سواه: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين}[1]، ثم أصف العالم وأصف نفسي: وكل ما سوى الله عالَم وأنا واحد من هذا العالَم، إذًا أنا وغيري من هذا العالم لا يصلح أن يُصرف لنا الثناء والحمد، إنَّما لا يصلح الثناء والحمد إلَّا لله.

ثم يأتي السؤال الثاني: فإن قيل لك: بمَ عرفت ربك؟ ستقول: عرفته بآياته ومخلوقاته.

تذكر من آياته: الليل والنهار والشمس والقمر، ومن مخلوقاته: السماوات السبع والأرضيين السبع ومن فيهن وما بينهما، كل هذه من مخلوقات الله-عزَّ وجلَّ-.

ثم تذكر الأدلة: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} ثم تأتي إلى آية سورة البقرة التي ستكون ناقلة لكلام ابن كثير، يوجد قبل هذا دليلين كلاهما يتكلَّم عن أن الله خالق لهذه الأشياء، وهذه الأشياء دليل على استحقاقه للألوهية.

ثم يقول: والرب هو المعبود، الذي ربَّاني هو الذي يستحق للعبادة، هنا أتى بآية سورة البقرة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ}، لماذا؟ {الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}؛ وهذا من البراهين العقلية، فأتى بكلام ابن كثير الذي فيه أن الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة، يعني: لا يستحق للعبادة إلَّا الخالق لهذه الأشياء.

ما هي العبادة؟

قال: " وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى، وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}".

كلها لله: أي كلها يجب صرفها لله، {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}[2]

ثم قال: "فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[3]".

{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ} اسمه كافر.

إلى هنا تبيَّن لنا: أن العبادات متنوعة وكثيرة يجب صرفها لله، وصرفها لغير الله يكون شرك.

يأتي هنا نوع انتقاله لابد من فهمها، أتى إلى أنواع العبادات التي ذكرها في أول الكلام إجمالًا وبدأ يستدلُّ لها.

---

(1) [سورة الفاتحة: 2]

(2) [سورة الجن: 18]

(3) [سورة المؤمنون: 117]

قال: " وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ... كُلُّهَا للهِ تَعَالَى، وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}". ثم "فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ"، وذكر الدليل.

يأتي هنا سؤال: هذه العبادات من أين لي أن أعلم أنها عبادة؟

بمعنى: هل الله في كتابه يقول عن كل شيء أمر به أن اعبدوني بهذه العبادة ولا تشركوا بي شيئًا؟ لأن القوم قد يحاجون في ثبوت كونها عبادة، بمعنى أنه يمكن أن يقولوا: كوننا نستغيث بفلان وفلان، هذا لا يعني أننا مشركين، أو كوننا نذبح لفلان أو فلان هذا لا يعني أننا مشركين، فوضع لهم قاعدة سابقة، إذا أردت أن تعرف ربك اعلم أن الرب: هو المعبود الذي يستحق العبادة، وأن ربك الذي تعبده أمرك بالعبادات، وأمرك أن تكون كلها لله، أن تكون كلها كل عباداتك له-سبحانه وتعالى-فلا يقع منك أن تصرف شيئًا منها لغير الله، فإذا صرفت شيئًا منها لغير الله؛ سيكون الناتج في حُكمك أنك مُشركٌ كافر.

لو قال أحدهم: من قال: لو أني ذبحت، لو أني نذرت أكون مُشركًا؟

نقول: أولًا: أعلم أن هذه عبادات، وما دام أنها عبادات إذًا صرفها لغير الله سيكون شركًا.

إذًا الأدلة القادمة هل مقصد الشيخ فيها: أن يشرح لك العبادات، أم مقصده أن يُبيّن لك أنها عبادة؟ فإذا كانت عبادة؛ كان صرفها لغير الله شرك.

سيتبيَّن لنا هذا من خلال نظرنا في الأدلة، سنرى كيف تكون هذه عبادات من خلال نظرنا في الدليل.

س/على ماذا يعود الضمير في: ومنه الدعاء؟

يعود والله أعلم على ما أمر الله به، يعني: ممَّا أمر الله به.

س/ هل أنواع العبادة التي ذكرها الشيخ مقصودة بعينها، يعني: بمعنى هي التي يكثر فيها الشرك، وتعمد الشيخ-رحمه الله-ذكرها؟

نعم هذا الذي يظهر والله أعلم، أن هذه العبادات مقصودة، وهي التي يكثر فيها الشرك، بدليل أنه ذكرها أيضًا في كتاب التوحيد.

س/ هل ذكره لكلام ابن كثير تأكيدًا لكلامه؛ لأن العلم وصلٌ بالأصل؟

نعم هذا الذي يظهر والله أعلم؛ لأنه بعدما قرر المسألة قال: قال ابن كثير، فهذا كأنه يقول: هذا على فهم السلف.

س/ لماذا أكثر الاستشهادات في العبادات القلبية؟

سيتبيَّن هذا لما نشرح نفس العبادات إن شاء الله.

س/ ذكر أنواع العبادات الإسلام والإيمان والإحسان ثم انتقل إلى العبادات؟

هو يتكلَّم بأن الله أمرنا بأنواع من العبادة، وذكر أنه من أنواع العبادة: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنها: الدعاء، والخوف، والرجاء، هذا كلام إجمالي لما يأتينا التفصيل سنرى لماذا بالذات العبادات القلبية إن شاء الله.

نبدأ الآن نتكلَّم عن أهم مقصد نبدأ به: هو أن يتبيَّن لك في هذا المقطع من الرسالة أن هذه عبادة أمر الله بها، فما الواجب عليك؟

الواجب عليك أداءها كما أمر الله، ولمَّا تفتِّش ستجد أن الله أمرك بأن تؤديها له وحده دون ما سواه.

كيف تُعرف العبادات؟

كل فعل عظَّمه الله ورسوله، أو أمر به، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبَّه، أو أحبَّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعلِه، أو وصفه بالطيِّب أو البركة أو الحُسن، أو نصَّبه سببًا لمحبَّته، أو لثواب عاجلٍ أو آجل، أو نصَّبه سببًا لذكره لعبده أو لشُكره له أو لهدايته إيَّاه أو لإرضاء فاعله أو وصف فاعله بالطيِّب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفي الحُزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سببًا لولايته، أو إخبار عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربةً، أو أقسم به أو بفاعله (القسم بخيل المُجاهدين وإغارتهم)، أو ضحك الرب جلَّ وعلا من فاعله أو عجب منه-فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والاستحباب، ولا يجوز أن يكون الشيء واجبًا أو مُستحبًا إلَّا بدليل شرعي يقتضي إيجابه أو استحبابه، والعبادات لا تكون إلَّا واجبة أو مستحبة، فما ليس بواجب ولا مُستحب فليس بعبادة.

مطلوب منك: أن تنظر في كل الأدلَّة التي أتتك على العبادات من هنا إلى آخر هذا المقطع، إلى نهاية الأصل أقصد ثم تأتي بجدول تضع فيه ثلاث خانات:

العبادة-الدليل-الطريقة التي عرفت بها أنها عبادة.

العبادة اسمها الذبح مثلًا، النذر، هذا اسمها، الدليل: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}[1]

طريقة معرفة أنها عبادة: مدح فاعلها لأجله؛ لأجل هذه العبادة.

يكون هذا في كل العبادات التي ذُكرت، بهذا نكون حقَّقنا أول مقصد من ذكر هذه العبادات وذكر أدلَّتها، يعني: هو لمَّا ذكرها وذكر أدلَّتها يُريد أن يُبيِّن لك: أن هذه الأعمال عبادة يجب القيام بها لله وليس لغيره، طيب ربَّما تكون هذه الأعمال-وسنرى نحن إن شاء الله لماذا أختار هذه العبادات بالذات؟- غير مُتبيِّنة لكل أحد، فأنت الآن من إتقانك لهذا الأمر يجب أن يتبيَّن لك: طريقة معرفة أن هذه عبادة؛ لأنك تأتي تقول لأحد: لا تذبح لغير الله، الذبح لغير الله شرك. يقول لك: يعني أنا أصلي وأصوم لله وأعبده وأتقرَّب إليه وحين أذبح أصبح مُشركًا؟ نقول: طيِّب الشرك صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله. يقول: ومن قال لك: أن الذبح عبادة؟ يعني: ممكن ندخل إلى هذا النقاش، فأنت تأتي تقول: أتعلم كيف تعرف أن شيئًا عبادة؟ كل ما أمر الله به عبادة، كل ما عظَّمه الله عبادة، كل ما مدحه الله عبادة، كل ما رضي فعله، إلى آخر هذه الطرق.

غالب الناس يقرؤون كتاب الله ولا يتصوَّرون كيف يعرفون أن هذه عبادات: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[2]، {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[3]، تقول لها: إحسانك إلى الناس عبادة، تقول لك: أنا الحمد لله أصلي وأصوم، يعني: ليست في وجهة نظري أن هذه عبادة هذا أمر زائد، نقول: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

ما معنى أن يُحب الله أمرًا؟ معناه: أنه عبادة، صحيح أنه يمكن أن يكون مُستحب لكنه في النهاية عبادة، فالعبادة سواءً كانت واجبة أو مُستحبة؛ يجب ألَّا تُصرف إلَّا لله-عزَّ وجلَّ-، يعني: المُستحب إذا ما فعلته لله؛ يحرَّم عليك أن تفعله لغيره.

---

(1) [سورة الإنسان: 7]

(2) [سورة التوبة: 7]

(3) [سورة البقرة: 195]

بدأنا في اللقاء الماضي الكلام حول الأصل الأول.

قال الشيخ جواب هذا السؤال أن الذي نحتاج الإجابة عليه باليقين، هذا أول أسئلة القبر الثلاث، نسأل الله أن يثبّتنا عليها. ومن هنا أتى أهمية الأصول الثلاثة وأهمية تكرارها، أن العبد يحتاج أن يتعلَّم هذه الأصول تعلُّمًا يجعله يثبت حال إجابته في قبره على هذا السؤال.

الآن لما يأتي السؤال: من ربك؟

يقول الشيخ: **مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ**؛ فإذا علمت أن ربَّك هو الذي ربَّاك وجب عليك ألَّا تعبد إلَّا إياه. أول جملة تبيّن أن المقصود هنا في نقاش الربوبية، يسأل من ربك الذي تعترف أنه ربَّاك؟ فيكون واجب عليك أن تعبده دون ما سواه، تعبده وتترك عبادة سواه، اتَّفقنا أن هذا معناه ما نسمّيه بالدلالة العقلية، أنت تعرف أنه خلقك وربَّاك؛ إذًا وجب عليك أن تعبده وحده. **فَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.**

والدليل على أنك ما دُمت تعترف أنه هو رباك، إذًا هو وحده الذي يستحق الحمد {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} تبيَّن مِن هذا أن الحمد كله لله، والثناء كله لله، والسبب أنه رب العالمين.

بعد ذلك من أجل أن يتحوَّل هذا المفهوم من مجرَّد إجابة عامة إلى درجة اليقين، لهذا يسأل:

بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وذكر من آيات الله أمثلة، ومن مخلوقات الله أمثلة، واستدل أن هذه الآيات والمخلوقات إذا عرفتها وعرفت عظمتها لابد أن تتصور ماذا يجب عليك بعد ذلك، ألا تسجد لا للشمس ولا للقمر، وإنما يجب عليك أن تسجد لله الذي خلقهن.

فقال: **الرَّبُ هُوَ الْمَعْبُود**: فالرب هو المعبود، فاستدل بالربوبية على الألوهية، واستدل بآية سورة البقرة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ} وأتت هنا الربوبية {الَّذِي خَلَقَكُمْ} ربكم هو الذي يستحق العبادة لأنه خلقكم {وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} لعلكم بهذه العبادة أن تتقوا سخطه. {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً} كل هذه الأمور انفرد بها {وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

وهذا كما اتفقنا هو أسلوب القرآن، القرآن حجتان كما هو معروف تُكرران، حجتان عقليتان مشهورتان تُكرر. ما هما الحجتان؟

الحجة الأولى: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية: أنت تعترف أن الله رب إذن لا تعبد سواه.

الحجة الثانية: على أهل الكفر وأهل الشرك. التنبيه على صفات النقص في المعبودات من دون الله.

الآن انظري لكلام ابن كثير قال: **الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ**. إذن يجب عليك ألاّ تصرف العبادة إلا لخالق هذه الأشياء. طيب أنت تقول: أنك موافق لن تصرف العبادة إلا لله، ولن تشرك معه أحد. يأتي هنا السؤال:

ما هي هذه العبادات التي يجب عليك ألَّا تصرفها إلَّا لله؟

قد يُشكل على كثير من الناس هذا الاعتقاد: أن العبادة هي الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج. فيعتني بأركان الإسلام على أنها هي فقط التي تمثِّل العبادة، ويهمل أمرًا مهمًا وهو: العبادات القلبية.

من أجل ذلك تجد أن كثيرًا من الناس يقعون في الشرك من جهة عباداتهم القلبية، في المقابل في النادر أن يقعوا في الشرك من جهة العبادات العملية.

إذا أردت أن نصف الموضوع بصورة أدق، فتجد أن كثيرًا من الناس يبدأ الشرك في قلوبهم من العبادات القلبية، وينتهي بصرف بعض العبادات البدنية: كالطواف على القبور، وكالذبح لغير الله، باعتبار أن الذبح شيء من العبادات البدنية، فالذبح فيه عبادة قلبية وفيه عبادة مالية أيضًا.

على كل حال، فهذا جواب سؤال يقول: لماذا اعتنى الشيخ هنا بالكلام حول العبادات القلبية؟

الجواب: أن العبد قد يصف نفسه أنه بريء من الشرك، وأنه لا يعبد إلَّا الله، وإذا قلت له: **الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ**. قال: نعم، كلام جميل. لكن تأتي إلى أنواع من العبادات يصرفها لغير الله، غير متبيِّن له أن هذا الذي يفعله صرف عبادة لغير الله.

لو سألت ما العلَّة؟ هل لأنه يعتقد أنه يصح صرف عبادة لغير الله؟

الجواب: لا، بدليل أنه يقرُّ أن الخالق لهذه هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

أين الخلل الآن؟ أنه لا يميِّز أن هذه عبادة. فالخلل يأتي أنه لا يميِّز أن هذه عبادة. فلمَّا نأتي نناقش الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، لابد أن تأتي بأعمال يكثر فيها أن تُصرف لغير الله، يكثر فيها وقوع صرف العبادة لغير الله. فإذا أتيت بهذه الأعمال وتبيَّن لك أن هذه عبادة، بذلك تحاجهم ألَّا يصرفوها لغير الله، تحاجهم أن يصرفوها لله.

بدأ الشيخ بالعبادات العامة كالإسلام والإيمان، ثم انتقل إلى الأمثلة الخاصة التي يقع فيها الشرك وهو يناقشك: **مَنْ رَبُّكَ؟** من أجل أن يبيِّن لك أن ربك الذي خلق هذه الأشياء هو المستحق للعبادة، فلا تصرف لا دعاءك، ولا خوفك، ولا توكُّلك، ولا رغبتك، ولا رهبتك، ولا خشوعك، ولا خشيتك، ولا إنابتك، ولا استعانتك، ولا استغاثتك، ولا ذبحك، ولا نذرك لغيره، وغير هذه من العبادات أيضًا التي أمرك الله بها كلها لله تعالى. والله تعالى يقول: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}. ثم لنعلم أن من صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر يدعو مع الله إلهًا آخر {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}

المعنى أن من دعا مع الله إله، فقد عبد غير الله. وسمِّي (إله) لأنهم يعتقدونه إله، هم يؤلهونه، فكلمة (إله) تُطلق على المعبود بالحق وعلى المعبود بالباطل، لكن لفظ الجلالة الله لا تُطلق إلَّا على الرب المعبود الحق خالق السماوات والأرض.

أنت انظر إلى الآية {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} لاحظي {مَعَ اللَّهِ} يعني هذا العبد ماذا يفعل؟ يدعو الله ثم ماذا أيضًا؟ ويدعو

معه غيره. إذا دعوت الله ودعوت معه غيره ما نفعتك العبادة. طبعًا من باب أولى إذا دعوت غيره فقط من دون الله. كما اتَّفقنا {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} هذا دليل على أن من دعا أو عبد غير الله مع الله فإنه كافر. إلى هنا تبيَّن لنا الكلام الإجمالي أن من إدراكك بأن الله هو وحده المستحق للألوهية، من اعترافك اصرف كل العبادات لله. ثم إذا وصلت إلى حال تفصيل، تأتي إلى كل عبادة ولابد أن يتبيَّن لك فيها أن الله أمرك بها ومنعك من صرفها لغيره. سنمرُّ الآن على تفاصيل هذه العبادات. أولًا كان الكلام إجمالي، الآن الكلام تفصيلي. كل عبادة يتبيَّن لك فيها أن الله أمر بها، إذًا هي عبادة، إذًا صرفها لغيره شرك.

نبدأ أولا بعبادة الدعاء، الآن الشيخ قام باللف والنشر أول الكلام قال: **وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ،** إلى الجملة **وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ**.كله الآن لف، ونشره، كيف؟ بالترتيب الآن نشره، أتى إلى الدعاء وذكر دليله، وأتى إلى الخوف وذكر دليله، ذكر دليله لماذا؟ لأنه قد يخالفك مخالف أن هذه عبادة. فهو أورد هذه الأدلة ليتبيَّن لك أن هذه عبادة يجب صرفها لله.

1. الدُّعَاءُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: (الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ) سنأخذ الآن مثلين ثم مطلوب منكم أن تأتوا ببقية الأدلة. **وَفِي الْحَدِيثِ: (الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ)**: هذا الحديث في سنده كلام. والحديث الصحيح لفظه ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ))[1] ومعناهما واحد، مخ الشيء: خالصه، فالدعاء معناه خالص العبادة. الآن هذا دليل صريح على الدعاء عبادة، لماذا؟

تبيَّن من اللفظ الدعاء هو العبادة، أنت تريد ماذا؟ تريد أن تعلم أن هذه عبادة. فإذا علمت أن هذه عبادة ارجع للدليل الأول {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} أي: لا يصح لك، من ثم ماذا؟ أن تدعوا مع الله أحدًا، هنا واضح الدعاء هو العبادة.

الآن الدليل الثاني، نأخذ دليل الدعاء الثاني: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي} جاء الأمر. نحن أمس اتَّفقنا أن من طرق معرفة العبادة أن يأتي فيها أمر: {ادْعُونِي} أصبح الدعاء ماذا؟ عبادة، لماذا؟ لأنه أتى بصيغة الأمر. ثم موطن آخر في نفس الآية: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} فسمَّى الله دعاءه عبادة، فالتارك لدعائه ماذا فعل؟ استكبر عن عبادته. بهذا عُلم أن الدعاء عبادة.

اتَّفقنا أن الدعاء عبادة، وعندنا دليلان، الأول صريح ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)) والثاني أيضًا واضح وجه الدلالة من الآية، أن الله–جلَّ وعلا–سمَّى الدعاء عبادة وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} الآية فيها أن الله أمر بالدعاء ووعد بالإجابة. فأمر، تثنية، ترتيب ثواب، اجتمعت ثلاثة أنواع من الدلالات في هذه الآية.

ما هي الثلاثة الأنواع؟

1. {ادْعُونِي}هذا فعل أمر.
2. وأنها عبادة، هذا أصرح ما يكون من الأنواع {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}.
3. ترتيب الثواب وهو الاستجابة.

(1) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وصحَّحه الألباني.

2. الْخَوْفُ:

ما الدليل على كونه عبادة؟ {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} ما وجه الدلالة؟ {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} إذا كنت مؤمنًا ماذا ستفعل؟ شرط صحة إيمانك خوفك من الله لا من غيره. هذا الشرط الأول في الدلالة على أنها عبادة، فالله جعل الخوف منه دلالة على صحة الإيمان.

الدليل الثاني من نفس الآية، جمع بين النفي والإثبات، فالله أمر بالخوف فلا تخاف غيره، وخافه هذا أمر يخصُّه-سبحانه وتعالى-.

والمقصود بهذا الخوف الذي يكون شركي:

- أن يخاف العبد معظَّم أن يصيبه بما شاء وقتما شاء كيفما شاء.
- يعتقد في المعظَّم كمال القدرة فيقع منه تمام الطاعة.
- يعتقد في المعظَّم كمال القدرة فينتج من هذا الشخص كمال الطاعة.

3. الرَّجَاءُ:

دليله-أي دليل على أن الرجاء عبادة -قوله تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ما الدليل على أن الرجاء عبادة؟

إذا نظرت للدليل وجدته صفات أهل الإيمان، عبد كان مؤمنًا راجيًا، مؤمنًا سيكون وصفه أنه راجي لقاء ربه. الآن لو فهمت معنى الآية، فمن كان ينتظر ويطلب ويترقَّب لقاء الله وهو لقاء الرضا والنعيم، فعليه أن يعمل صالحًا ولا يشرك بعبادة ربِّه أحدًا. إذا فهمت أنه لو وصف أحد أنه يرجو ربه يعني هذا مؤمن بلقاء الله، مؤمن بالله وبلقائه، إذا كنت راجيًا فافعل كذا وكذا، هذا معنى الكلام، كأنه يقال: إن كنت مؤمنًا فافعل كذا وكذا. الإيمان يأتي من العبادات، صحيح؟ الرجاء الآن وصف المؤمنين. اتَّفقنا متى يكون الشيء عبادة؟ إذا كان وصف للمؤمنين، والرسول-صلى الله عليه وسلم-نصَّ أنه دخل على شاب وهو في مرض الموت، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النبي-صلى الله عليه وسلم-دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ: ((كَيْفَ تَجِدُكَ؟)). قَالَ: "وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي" هذا معنى الجمع بين الخوف والرجاء. رجاءك يكون بالله، وخوفك يكون من ذنوبك، فالله لن يعاقبك افتراءً بل يعاقبك حين يعاملك بعدله.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-: ((لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ))[1] نسأل الله من فضله. لو هذان الشعوران اجتمعا للإنسان في حال الموت، إلَّا يعطيه الله ما يرجو، ويؤمِّنه مما يخاف.

4. التَّوَكُّلُ:

دليل التوكُّل {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أول سؤال: كيف تعرف من الدليل أنها عبادة؟ الله تعالى يقول: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ} إذًا هذه طريقة تقديم ما حقه التأخير، يفيد الحصر. أصل الكلام: توكلوا على الله. لمَّا قدم ما حقه التأخير وهو الجار والمجرور

(1) أخرجه النسائي في "الكبرى" (9 / 390) برقم: (10834) والترمذي في "جامعه" (2 / 301) برقم: (983) وابن ماجه في "سننه" (5 / 328) برقم: (4261)، حديث حسن.

المتعلِّق بالفعل الأمر، علم أن المقصود الحصر. كانت هذه هي الطريقة الأولى التي دلَّت على أنها عبادة، يعني {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ} حصر لا تخاف إلَّا من الله، إذًا الخوف عبادة. {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ} تقديم ماحقه التأخير يفيد الحصر. الحصر نفسه له صيغ: فالنفي والإثبات يفيد الحصر، مما حقه التأخير يفيد الحصر، إذًا فهمت من هنا أن هذا يفيد الحصر، إذًا دليل على أنها عبادة. أيضًا: {فَتَوَكَّلُواْ} فعل أمر دل على وجوب التوكُّل، مادام واجب إذًا هو عبادة.

الدليل الثالث من نفس الآية، الله-عزَّ وجلَّ-كما قال ابن القيم: الله-عزَّ وجلَّ-جعل التوكُّل عليه شرطًا في الإيمان. دلَّ هذا على أنه إذا انتفى التوكُّل انتفى الإيمان. من لا توكُّل له لا إيمان له.

في الحقيقة الشيخ في غالب المواطن يذكر دليل واحد. هنا في التوكُّل ربما لأهمية الموضوع، في الآية الأولى: كان هناك دلالة على أن التوكُّل عبادة، الثانية: دلالة زائدة فيها ذكر للجزاء {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} فذكر الجزاء أيضًا من أدلة أنها عبادة، فيها جزاء من توكَّل على الله. فإذا كان الله-عزَّ وجلَّ-سيكون حسبه أي: سيجازيه بما هو خير، إذًا هذه عبادة.

5. الرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ:

الله-عزَّ وجلَّ-قال: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} هذه ثلاثة أنواع من الأدلة تدل عليها آية واحدة: رهبة ورغبة والخشوع.

طيب ما الدلالة على أنها عبادة؟

أن الله جلَّ ثناؤه أثنى على الأنبياء الذين تقدَّم ذكرهم في السورة، وهم زكريا وأهل بيته، فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} فهم كانوا يسارعون في الخيرات، منهم زكريا وأهل بيته، معناها أن هذا وصف وثناء للأنبياء، وما دام أنه وصف وثناء للأنبياء إذًا هو عبادة.

سريعا ما معنى الرهبة؟ الرهبة بمعنى الخوف المثمر للهرب من المخوف. فهو خوف وزيادة. ما هو الزيادة؟ العمل، عمل من أجل دفع ما يخاف.

الرغبة ما هي؟ الرغبة معناه السؤال والتضرع والابتهال مع محبَّة الوصول إلى الشيء المحبوب. أنت الآن لمَّا تدعو ويكون في قلبك شدَّة شوق إلى جنات النعيم، إلى لقاء الله، وإلى الفوز بالجنة، وإلى النجاة من النار. شدة ما في قلبك من شوق يسمَّى رغبة. تصوَّر ما في قلبك من شدة-أي شدة الشوق-عبادة.

من أجل ذلك انظر إلى عظيم نعمة الله في تكدير صفو الحياة، ذلك أن العبد ينعم عليه يكدر صفو حياته، ليعبد الله بعبادة الرغبة فيما عنده. يمر على العبد لحظات يحمد الله أن القضية ليست الدنيا فقط. يمر عليه لحظات يرى أن باطن الأرض خير من ظاهرها. يمر عليه لحظات يرى نعيم أهل الدنيا فيشتاق إلى جنات النعيم. هذه المشاعر العجيبة مع كونها برد وسلام على القلب فهي في نفسها عبادة.

ننظر إلى الخشوع: وهو الخضوع وزيادة. والخاشع متذلِّل في قلبه، وبصره، وصوته، وكلامه، ونظره. فترى آثار خشوعه في عباداته،

فترى في صلاته وصيامه ودعائه وسائر أحواله ذليلًا ليس معجبًا، منكسرًا ليس منتفخًا. يرى فخره أن يقف عند بابه، ويرى ذله أن يقف عند باب غيره.

6. الإِنَابَةُ.

يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} أولًا: نرى ما الدليل على أن الإنابة عبادة، ثم نتحوَّل إلى فهم معنى الإنابة. هنا يتبيَّن أن الإنابة أمر مأمور به، فهو بذلك يعتبر عبادة.

والإنابة نوعان:

- إنابة للربوبية.
- إنابة للألوهية.

إنابة الربوبية هذه يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر.

يتبيَّن لك {مُنِيبِينَ} هذه في سورة الروم موطنان متتابعان، ذكر الله {مُنِيبِينَ} مرتين، فإذا قرأتِ الآيتين سيتبيَّن لكِ أن:

- منيب الأولى: فعل لكل الناس لمَّا يمسُّهم الضر {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} فهذا الموطن الأول آية (33)، فيها الربوبية العامة أي من كل الناس.
- ثم يأتي في الآية التي قبلها وصف للإنابة الخاصة وهي إنابة الألوهية. ما معنى إنابة الألوهية؟ التوبة وزيادة. ما هي الزيادة؟ هي الإقبال على الله تعالى بالعبادات بعد التوبة، فيكون في هذه الإنابة: محبَّة وخضوع، وإقبال على الله، وإعراض عن غيره.

والشيخ-والله أعلم-أنه ذكر الإنابة ولم يذكر التوبة، لأن:

- الإنابة متضمنة للتوبة.
- أيضًا العبادة واضحة في الإنابة، أوضح بالنسبة للتوبة، الإنابة العبادة أوضح منها بالنسبة للتوبة بسبب زيادة الإقبال على الله بالعبادات.

إذًا {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ} ما معناها؟ أي: ارجعوا إليه بالطاعات.

7. الاسْتِعَانَةُ.

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} بنفس الطريقة ما الدليل على أنها عبادة؟ تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فصار المعنى احصر استعانتك على الله. ثم أورد الحديث ((وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ))[1] بنفس الصورة، أي: استعن بالله ولا تستعن بغيره، احصر استعانتك وطلب عونك على الله، احصر طلب عونك على الله.

باختصار ما معنى الاستعانة؟ الاستعانة تكون عبادة إن كانت متضمِّنة:

- كمال الذل من العبد لربه.

(1) رواه الترمذي (كتاب الجنائز، باب قول النبي يا حنظلة ساعة وساعة، 2706) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح، وصححه الألباني.

- مع الثقة به.
- والاعتماد عليه.

فيها ثلاث عناصر الاستعانة حتى تكون عبادة:

- خضوع وتذلل.
- وثقة بالله-عزَّ وجلَّ-.
- واعتماد عليه وتبرُّؤ من الحول والقوة.

8. الاسْتِعَاذَةُ.

دليلها: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}.

ما وجه أنها عبادة؟ ما الدليل أنها عبادة؟

الأمر دليل على أنها عبادة. الأمر بها قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}.

والاستعاذة معناها:

الاعتصام والالتجاء إلى من تعتقد أنه كامل يعيذك ويلجئك.

والاستعاذة فيها ثلاث عناصر:

1. مستعاذ به.
2. مستعاذ منه.
3. مستعيذ.

فلابد أن تكون معتقد في المستعاذ به أنه كامل الصفات، قدير. ولابد أن يكون المستعيذ خائف منكسر. إذًا في الآيتين دليل على وجوب الاستعاذة بالله، أنه-سبحانه وتعالى-هو القادر على إعاذة عبده ودفع الشرور عنه.

مرة أخرى الثلاث العناصر التي تتركب منها الاستعاذة:

- مستعيذ: هذا خائف، ذليل، منكسر. هذه وصوفاته.
- مستعاذ به: هذا عظيم، قادر، مالك.
- مستعاذ منه: هو هذا الذي أخاف المستعيذ.

9. الاسْتِغَاثَةُ.

دليله قوله تعالى {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} هنا الدليل أن الله رتَّب على استغاثتهم الاستجابة. معلوم حديث هذه الآية أصلًا نزلت في غزوة بدر، كان المشركين أكثر من المسلمين ثلاث مرات، فوقع من المسلمين الاستغاثة .

في الحديث: اسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ ((اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ)) فَمَازَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ. وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ}[1] فأصبحت الاستغاثة عبادة لأنه ترتَّب عليها عطاء.

علمت هنا أن الاستغاثة عبادة. الاستغاثة: يطلب العبد من الله أن يزيل ما فيه من شدَّة. نحن نتوسَّل إلى الله-سبحانه وتعالى-أن يفرّج الكرب عن المؤمنين عامة وعن خاصة أوليائه. نسأله-سبحانه وتعالى-أن يغيثنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن. اليوم الدعاء للنجاة من الفتن لا يكفي، بل نحتاج شدة رغبة في النجاة، بل نحتاج أن نصل إلى حال الاستغاثة. نسأله-سبحانه وتعالى-أن يفرّج على أوليائه، وأن يحفظ عليهم وعلينا اللهم آمين.

10. الذَّبْحُ.

{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هذا الدليل من الكتاب، والدليل من السنَّة قال-صلى الله عليه وسلم-: ((لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ))[2] هذان الدليلان يدلَّان على أن الذبح عبادة.

ما وجه كونها عبادة؟

- قوله {لِلهِ} {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ} فاللام لله لها معنيان:
  - {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي} يعني: خالصة لله، أي جميع أنساكي. الأنساك تحتمل معنيان: تحتمل الذبح، وتحتمل جميع المناسك والعبادات {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} الظاهر أن غالب المفسِّرين-الله أعلم-أنهم فسَّروا النُّسك بمعنى الذبح قياسًا على قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} قالوا الذي يقترن مع الصلاة هو الذبح، فيفسَّر النسك بالذبح، لأن أصلًا الذبح يفسَّر بالنُّسك. وهذا أمر نتكلَّم عنه في التفسير، كيف ننقل اللفظ من المعنى الخاص إلى العام ومن المعنى العام إلى الخاص. على كل حال، إذا علمت هذا {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي} لله، أي مختصَّة بالله.
  - وتأتي {وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ} بمعنى أن الله مالك لها، هذه أول دلالة.
- {لاَ شَرِيكَ لَه} لها معنيان:
  - لا شريك له في ربوبيته: هذا على المحيا والممات.
  - ولا شريك له في ألوهيته: هذا على الصلاة والنسك.
- ثم تأتي {وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ}: يعني أن الصلاة والنسك من الأوامر، عُلم أنها أوامر.

إلى هنا كم دلالة؟ ثلاث دلالات:

---

(1) رواه مسلم (كتاب الجهاد والسير، باب الإِمْدَادِ بِالْمَلاَئِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَإِبَاحَةِ الْغَنَائِمِ، 4687).

(2) رواه مسلم (كتاب الأضاحي، باب تَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَلَعْنِ فَاعِلِهِ، 5240).

شرح الأستاذة أناهيد بنت عيد السميري

- اللام دلالة.
- {لاَ شَرِيكَ لَه} دلالة.
- {وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ} دلالة.
- أيضا ممكن نأخذ {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِين} دلالة على أن هذا من أفعال الإسلام.

نأتي للحديث الذي من السنَّة، هذا جزء من حديث علي بن أبي طالب، الشيخ ناقش هذه المسألة في كتاب التوحيد بوضوح (لعن الله من ذبح لغير الله) فهذا السياق ممكن يكون اللعن بمعنى الطرد والإبعاد، وممكن يكون اللعن بمعنى الخبر أو الإنشاء. ثم يخبر الرسول-صلى الله عليه وسلم-أن الله لعن من ذبح لغير الله، أو ينشئ هذا: أي يدعو عليه. على كل حال، مادام أتى اللعن على ذلك، هذا دليل على أن الذبح لغير الله كبيرة. اعلم أن أكبر الكبائر هو الشرك، وأكبر ما يقع فيه ابن آدم أن يتَّخذ مع الله ندًّا. هنا أتى أن هذا مطرود طردًا تامًا من رحمة الله، وما يصير طردًا تامًا من رحمة الله إلَّا إذا ارتكب-صرف-عبادة لغير الله بالدلالة العكسية.

11. النَّذْرُ.

ما وجه كون النذر عبادة؟ {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} كان النذر أول وصف للأبرار الذين ورد ذكرهم في سورة الأنفال. أن كل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به دلَّ على كونه عبادة.

هنا يأتي النقاش: هل النذر أمر محبوب أم أمر غير محبوب؟

النذر أصلًا أن يلزم الإنسان نفسه شيئًا غير لازم بأصل شرعي.

هناك نذر معلَّق ونذر مطلق، فالذي يظهر نذر مقيَّد بفعل كذا (لو أعطاني الله كذا صمت له) أو (لو شفى الله لي مريضي تصدَّقت) هذا النوع هو الذي وصفه النبي أنه ((إِنَّهُ لاَ يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ))[1].

أمَّا المطلق: يعني أن يلزم الإنسان نفسه من باب الطاعات، باب تحفيز نفسه على الطاعة، يقول: (أنا أنذر نذرًا عليَّ أن أصوم ثلاث أيام كل شهر) متمثِّلًا حديث النبي-صلى الله عليه وسلم-الآمر بالصيام، أو (أنذر أن أختم كتاب الله) يجد في نفسه كسل أن يختم كتاب الله كل شهر، هذا كله يعتبر نذر مطلق وليس المقيد بفعل الله يحتاج إلى مزيد بحث هل هذا يدخل فيه أو أنه لا يدخل فيه على المطلق والمقيد، المهم مجرد أن يدخل الإنسان في النذر يجب الوفاء به.

بفضل الله انتهى الكلام عن الأصل الأول وتبيَّن لنا أن الرب هو المعبود وأن الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة. أن العبادة لا تكون عبادة إلَّا بالتوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاة إلَّا بالوضوء. وإذا علمت هذا وجب عليك أن تلاحظ أكثر وتتبَّين أكثر ما هي العبادات؟ وفتِّش أكثر العبادات التي يجب صرفها لله تحذر أن تصرفها لغيره. الناس ابتلوا بفتنة عظيمة من هذا الباب.

(1) رواه مسلم (كتاب النذور، باب النَّهْيِ عَنِ النَّذْرِ وَأَنَّهُ لاَ يَرُدُّ شَيْئًا، 4327).

السؤال يقول: ((لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ)) كيف يكون للإنشاء؟

معناه أن النبي-صلى الله عليه وسلم-يدعو عليه. إنشاءً: أي النبي يدعو عليه أن الله يلعنه. خبرًا: أي النبي-صلى الله عليه وسلم-يخبر أن الله لعنه.

نبتدئ الكلام حول الأصل الثاني

بعدما بيَّن الشيخ في الأصل الأول من ربك. أن الرب الذي ربَّاني وربَّى جميع العالمين بنعمته وهو الذي يستحق أن يكون معبودي لا معبود لي سواه. واستدل على هذا بأنك لو سُئلت بما عرفت ربك؟ فقل بآياته ومخلوقاته. فإذا نظرت في الآيات التي تذكِّرك بآياته ومخلوقاته وجدت أن الله يُخبرك أن الشمس والقمر كلها من مخلوقات الله، وينهاك أن تسجد لها، ويأمرك أن تسجد له وحده. عُلم من ذلك أن خالق لهذه الأشياء هو ماذا؟ {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} خَلْقُهُ لكم سبب لأن تعبدوه وحده لا شريك له.

إذا تبين لك أن الرب هو المعبود، لاحظ العبادات، لاحظ أن الله أمرك أن تكون له وحده {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} واعلم أن دعاء العبد لغير الله وتوجُّهه بالعبادات لغير الله أيًّا كانت هذه العبادة فعمله مشرك كافر، يدعو مع الله إلهًا آخر {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} ثم بيَّن لك كيف أن كثير من الناس يغفلون عن العبادات فلا يتبيَّن لهم أنها عبادة، فذكر لك طرفًا منها وطرفًا من أدلَّتها التي تدل أنها عبادة. إذا أردت مزيد بيان في هذه المسألة فعُد مرة أخرى إلى كل العبادات، تأمَّل لمَ أمرك الله بها؟ ماذا تفهم عنه؟ وماذا تعرف عنه حال قيامك بهذه العبادات؟ أي عُد مرة أخرى إلى العبادات، وانظر إليها. انظر لمَّا أمرك بالدعاء مع أنه سميع قادر مالك، ذلك لتعرف ربك، ومعرفة الرب لها طرق من بينها تأمُّل ما أمر به من عبادات خصوصًا القلبية منها. إذا تأملتها تبيَّن لك أنه موصوف بكمال الصفات فلا يأمرك بالدعاء ووعدك بالإجابة إلَّا وهو سميع عليم مالك قادر، ولا يأمرك بالإنابة إليه إلَّا وهو تواب عليك، يسمع نجواك، يعلم دقيق حركة شوقك إليه. كل هذا يعرفك على ربك أكثر، هذه نظرة أخرى. فإذا أردت أن تنتفع بهذا الجزء الذي مضى، اصنع جدولًا تذكَّر فيه العبادة، ودليلها، ووجه دلالة أنها عبادة. ثم اذكر شيئا من صفات الله التي تتبيَّن لك من خلال هذه العبادة. إذا تبيَّن لك من رَبُّك وما يستحق-سبحانه وتعالى-من إفراد وتعظيم، تأمَّل بالتفصيل دينه الذي أمرك به.

قال الشيخ: **الأَصْلُ الثَّانِي مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ**: والدين هو ما يتديَّن به الإنسان: يتعبَّد به. ولا يكون دينًا إلَّا إذا حصلت الطاعة والانقياد.

قال: **مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ**: بيَّن هذا أن المعرفة لا تكون معرفة إلَّا وهي مقرونة بالأدلة. لا يمكن أن يكون من هم على سلف هذه الأمة إلَّا بالكتاب والسنَّة. وهذا الأصل جواب على السؤال الثاني الذي يتعرَّض له الإنسان في قبره -أسال الله عزَّ وجلَّ أن يثبِّتنا حال السؤال-تعلمه وتبصره لكي يكون حال ثباتك عند سؤالك في قبرك بتوفيق من الله.

قال: **الأَصْلُ الثَّانِي مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ. وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْخُلُوصُ مِنَ الشِّرْكِ.**

وَهُوَ: يعني دين الإسلام الذي بعث به نبيه-صلى الله عليه وسلم-يقوم على أسس ثلاث:

- الاستسلام لله بالتوحيد.
- والانقياد له بالطاعة.
- والبراءة من الشرك والخلوص من الشرك.

ما معنى الاستسلام لله بالتوحيد؟

معنى الخضوع والذل له-سبحانه وتعالى-وانظر التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة يعتبر إسلامًا يعتبر إيمان.

ما تعريف الإيمان بالله؟

هو الإيمان بربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

لما أعرِّف الإيمان أعرِّفه بالتوحيد، هنا لما عَرَّف الإسلام جعل أساسه الاستسلام لله بالتوحيد. وإفراد الله بالتوحيد يعتبر إسلامًا ويعتبر إيمانًا، يسمَّى (إسلام) ويسمَّى (إيمان)؛ لأن كلمة الإسلام هنا في هذا السياق تطلق على الدين كله، هذا معنى غير معنى عندما يأتي الإسلام والإيمان فيقترنان، سيأتي الكلام على اقترانهما.

والانقياد له بالطاعة:

هذا إشارة إلى أفعال الجوارح.

الاستسلام بالتوحيد هذا فعل القلب، لأن أصل التوحيد ينبعث من أين؟ من إيمان القلب. من أجل ذلك العقيدة هي الأساس التي يبنى عليها الدين وتصح بها الأعمال. الآن يأتي الانقياد له بالطاعة هو فعل الجوارح، طاعة الله وطاعة رسوله-صلى الله عليه وسلم- وكما هو معلوم الرسول-صلى الله عليه وسلم-له الطاعة المطلقة غير المقيَّدة، وطاعة غيره مقيَّدة كطاعة ولاة الأمور وطاعة الوالدين فهي مقيَّدة؛ لأن طاعتهم تابعة لطاعة الله تعالى.

طيب والخلوص من الشرك؟ **وَالْخُلُوصُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ** هذا في النسخة الصحيحة، هنا مكتوب **الْخُلُوصُ مِنَ الشِّرْكِ** فقط، هي الخلوص من الشرك وأهله.

والخلوص من الشرك: يعني الخروج من الشرك.

فإذا أردت تعليق للشيخ صالح آل الشيخ على هذه الجملة قال فيها أن النسخة المعتمدة في الأصول الثلاثة هي **الْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**. وهذا موافق للدليل الذي تعتقد أن الشيخ استخدم هذا في كتاب التوحيد في باب تفسير التوحيد لما جاء استعمل آية الزخرف {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} فهو فسَّر التوحيد بماذا؟ في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن لا إله إلا الله تعني الإسلام، فسَّر الإسلام بهذه الأدلة، من المعاني البراءة من الشرك وأهله، وهذه النسخة المعتمدة كما يقول الشيخ صالح. والمعنى أوسع وله سنده من الدليل، فالأصح أنه الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

طيب نرى الآن البراءة من الشرك وأهله ما المقصود بها؟

أنت تعلم أن الله قال في الحديث القدسي ((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))[1] يعني الأعمال لا تُقبل إلَّا إذا كانت خالصة. وأنت ماذا تحتاج؟ تحتاج تجمع قلبك على أن تبغض الشرك. تراه ظلمًا إذا مر بك أحد مظاهره، تعلن براءتك منه، لا يمر عليك مظهر من مظاهر الشرك وأنت لا تقول بقلبك وبلسانك {إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ} هذا الكلام الآن على المعبودات من دون الله {وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا} فأنت تكفر بهذه المعبودات، تظهر لها العداوة والبغضاء، وتظهر لأهلها العداوة والبغضاء على ما يعتقدون {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} فلابد من البراءة من الشرك وأهله. فتتبرَّأ من المشركين، وتتبرَّأ من الشرك فلا تساكنهم، ولا تختار أن تساكنهم، ولا تختار أن تتشبَّه بهم، أو بشيء من عاداتهم، تبغضهم. الناس اليوم يبغضون الناس والأشياء والأماكن لأمارات شعروا بها ولأمور تافهة وقعوا فيها.

اعلم أن ما ملَّكك الله مِن حبٍ وبغض–والقدرة على الحب والبغض، إنَّما هي نعمة–ملَّكك الله إيَّاها من أجل أن تتقرَّب بها إليه. ملَّكك الله قدرتك على الحب، وقدرتك على البغض، تتقرَّب بها إليه. فلا ترى عبدًا فقد الشعور بالألم فاعتُدي عليه إلَّا أتى إليه أحد فآذاه في بدنه، وهو ما يشعر بشيء.

أي في أحد المستشفيات حصل موقف أطفال صغار يلعبون في ممر المستشفى، جاء طفل أتى إلى شعر الطفلة التي أمامه وشدَّه بكل قوة ثم الطفلة مشت عادي. كل الموجودين استغربوا أن هذا الشد ومع ذلك ولا حركة! ولا أي تعبير في وجهها تمامًا! ثم تكرَّر الموقف، ثم رأوا الأم، رأوا الطفلة مع أمها، سألوها–من باب الاستعجاب–: بنتك صبورة أم ما وصفها؟ قالت: لا، بنتي لا تملك خلايا حسيَّة، ما تشعر، يعني لما تُشد من شعرها ما تشعر بالألم! تصوَّر هذا الكلام الآن، فهمت أن ما تملك من إحساس نعمة، تبيَّن لك شخص لا يشعر، فهي طفلة بكامل قواها العقلية إلَّا أنها ما تشعر بأي اعتداء، ما عندها خلايا حسيَّة. وهذا مادام أنه نعمة، إذًا {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا} تعمل ما أوتيته، ما أعطاك الله من النعم طاعة لله، فحبك الذي تملكه اجعله قربه إلى الله، تحب الله، وتحب من يحب الله، وتحب عمل يقرِّبك إلى الله، تبغض من يبغض الله، ولا تتعلَّق إرادتك بحب شيء يبغضه الله.

إذا علمت ذلك، أنت شخص عندك ثلاثة ملكات، تحتاج أمامها ثلاث أعمال حتى تكون مستسلم:

- عندك قلب لابد أن يمتلئ توحيد–يعني عندك قلب فيه اعتقادات–لابد أن يمتلئ بأن الله كامل الصفات، وأنه وحده المستحق أن يُتقرَّب إليه، وأن يُعظَّم، وأن يُتعلَّق به. هذا الاستسلام له بالتوحيد.
- عندك جوارح يجب أن تنتفع كلها له سبحانه. انقياد له بالطاعة.
- الآن عندك داخل القلب مشاعر، هذه المشاعر هي التي تأتي بعمل القلب. بهذه المشاعر يجب أن تتَّجه بما يوافق اعتقادك، فتخلص بمشاعرك أولًا. تتبرأ بمشاعرك من الشرك، من أهله. ربما كان الشرك مكانه نفسك، تبرأ من تعظيم نفسك، وتتبرأ من أن يكون شعور قلبك تجاه نفسك، التعظيم. مرِّغ وجهك بالتراب، واعلم أنك عبد ضعيف ما قواك إلَّا الله، عليه توكَّل، عليه اعتمد، اسأله، أنب إليه، كرر الوقوف عند بابه، اسأله أن يشرح صدرك. املأ قلبك اعتقادًا بكمال صفاته، وأن تتحرَّك جوارحك هذه لطاعته.

(1) رواه مسلم (كتاب الزهد والرقائق، باب مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ، 7666).

قال الشيخ: **وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإسْلامُ.**

أُعيدت كلمة الإسلام مرَّة أخرى، والإسلام يعني ثلاث مراتب ما هي؟

قال: **الإسْلامُ.** فصارت الإسلام الثانية غير الإسلام الأولى.

قال: **الإسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ.**

إذًا الإسلام يطلق، ويقصد دين الرسل كلهم. والإسلام يطلق، ويقصد به دين النبي محمد-صلى الله عليه وسلم-والإسلام يطلق، ويقصد به أحد مراتب الدين.

قال: **وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ**: أي الدين ثلاث مراتب. **الإسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ**: وله الدليل الواضح وهو حديث جبريل.

ما معنى المراتب؟

المراتب جمع مرتبة وهي المنزلة والمكانة.

قال: **وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ. فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إلٰه إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.**

هذا معلوم بالأدلة، ثم أتى فاستدل لكل ركن من أركان الإسلام. أهم ركن يستدل له هو الأول، هو ركن الشهادة، دلَّل لها وذكر معناها. الأمر واضح، أي فعله هذا واضح أن المقصود كبقية الأركان في الإسلام مبني على ماذا؟ مبني على شهادتك أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

مرَّ معنا الكلام حول مقدمة الأصول الثلاثة، والشيخ استعمل في مقدمة الأصول الثلاثة مرحلتين:

المرحلة الأولى:

هي الإشارة إلى أنه يجب علينا أربع أمور، وهذه الأمور اجتمع ذكرها في سورة العصر:

- العلم بالله وبرسوله وبالدين.
- والعمل.
- والدعوة.
- والصبر.

وهذه الأربعة تلزم العبد: أما العلم فيلزمه أن يبحث عن مصدره، وعمَّن يعلِّمه فيلتزمه، والله-عزَّ وجلَّ-يسَّر الأمر وقرَّبه، فلا علم إلَّا من كتاب الله وسنَّة نبيِّه. وأورث الله هذا العلم العلماء، وطلاب العلم يطلبونه من مصادره، ويعلِّمونه لعامة الناس. فإذا كانت هذه الأربع هي التي تجب على كل عبد، كان دور العالم والمؤلف كتابة ما يخص الأول وهو العلم؛ من أجل أن يعمل الناس بما يجب عليهم العمل به، فهو يعلمهم ما يجب عليهم العمل به، وهذا الذي يجب عليهم العمل به إمَّا أن يكون عمل قلب أو عمل جوارح، وسواء كان عمل قلب أو عمل جوارح لا بد أن يُبنى على اعتقاد.

فما هو الاعتقاد الذي سيُبنى عليه عمل قلبك وعمل جوارحك؟

أتت المرحلة الثانية:

قال: **[أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ]** واستشهد لهذا. ثم أخبر أيضًا: **[أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ]**

ففهم من هذا أن المطلوب أن تعتقد بتوحيد الربوبية وتعتقد بتوحيد الألوهية.

ثم أشار إليك إلى لازم توحيدك للربوبية وتوحيدك للألوهية، ما لازمهما؟

لازمهما: الولاء والبراء. فتبرأ من كل من يُعبد من دون الله، وتبغضه وتكرهه، وتوالي وتحب الله، وتحب كل من يحب الله ويوالي الله.

ثم بيَّن لك أن هذا الذي يجب عليك أن تعتقده لست في ذلك بدعًا، بل لك سلف. قال: **[اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ]** ماذا؟ هي التي كلَّمناك عنها، هي التي قلنا لك: **[أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ]** أن الحنيفية التي هي ملَّة جميع الرسل: **[أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا]** وهذه الحنيفية هي التي من أجلها خُلق الخلق وأمر جميع الخلق بها، وهي معنى قوله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وهذا الأمر الذي قرَّرناه لك من توحيد الألوهية هو أعظم ما أمر الله به، كما ذكر أن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأعظم ما نهى عنه هو الشرك.

ثم عرَّف لك التوحيد: وهو إفراد الله بالعبادة.

وعرَّف لك الشرك: وهو دعوة غيره معه، واستدل بقوله تعالى: {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا}[1].

هذا كله الآن ما يجب أن تعتقده. بقي الآن ما يجب أن تعمله سواء كان عمل بالقلب أو عمل بالجوارح، وهذا الذي يجب أن تعمله جمعه الشيخ باختصار في إجابة الأسئلة الثلاثة التي سيُسأل عنها كل عبد في قبره. إذا كنت تحمل هم هذه الساعة، وترى يقينًا قربها، وتعلم علمًا جازمًا أنه لا بد منها، فاعمل للاستعداد لها وتبينها وتفطن لمواطنها، وأعدها مرارًا وتكرارًا، فإن في بيان هذا الأمر قوة للاستعداد، أسأله بمنه وكرمه كما علَّمنا أن يثبتنا في الإجابة عليها.

قال الشيخ:

[فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ–مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ]

هذا كله مبني على ما مضى: **[أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا]** ومبني أيضًا على أنك تعرف: **[أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ]** فأنت تقول لأنه ربي، فأنا أعبده.

[فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟]

تقول: عرفته **[بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ]** ثم تضرب على هذه الآيات والمخلوقات أمثلة.

ثم تأتي إلى العمل الآن، حتى وصلنا إلى سورة البقرة.

[قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ . رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ].

تأتي العبادة الآن، **[مَنْ رَبُّكَ؟]** الذي أعبده، رباني وأعبده.

الآن حال عبادتك لربك: ما الذي يجب أن يستقر في قلبك؟ ما هو عمل القلب حال عبادتك لربك؟ من أجل ذلك هذا الجزء هو العمل. ما هو عمل قلبك حال قيام جوارحك بالعبادة؟ العبادة سنتناقش فيها في (ما دينك) لكن قلبك حال العبادة ما به؟

ستقول: أنا اعلم أن أنواع العبادة التي أمر الله بها مثل: الإسلام، والإيمان، والإحسان، والدعاء، والخوف، والرجاء، وغير ذلك من العبادات التي أمر الله بها، كلها لله. أنا أعتقد أنها كلها يجب أن تُصرف لله {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}[2]. فإذا علمت أن المساجد التي هي مواطن السجود–أماكن الطاعة والعبادة–كلها لله، معناه أنه هو الذي يستحق أن يُعبد فيها {فَلَا تَدْعُوا

(1) [سورة النساء: 36]

(2) [سورة الجن: 18]

مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} يعني لا تعبد أحدا مع الله. وتقول: أنا أعتقد أن من صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر، {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[1].

من هم الكافرون؟

في أول الآية قال: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ} فإذا وقع ودعا غيره، فحكمه مشرك. {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ} "مع الله " في الآية، ما في "غير الله ". {مَعَ اللَّهِ} هذا موطن الشاهد: أنه وقع في الشرك من هنا. قال مشرك، وسمَّاه الله كافر، لأجل ذلك قال الشيخ:

[مُشْرِكٌ كَافِرٌ] فمشرك؛ لأنه مع الله. وكافر، لأن الله قال: {الْكَافِرُونَ}. فإذا علمت هذا علمت أنه يجب أن تكون في دعائك، وخوفك، ورجائك، ورغبتك، ورهبتك ...إلى آخر ما ذكر من عبادات، قلبك لا يتحرَّك لغير الله فيها.

بعدما تبين لنا هذا، وتبيَّن لنا أنها عبادات وأن صرفها لغير الله شرك. إذا تأمَّلت أكثر وجدت أن غالبها عبادات قلبية، وأن هذه العبادات القلبية تستلزم منك اعتقادات قلبية. فأنت لا تدعو الله إلَّا إذا اعتقدت أن الله كامل الصفات وأنه سميع مجيب قريب. ولا ترجو إلَّا إذا كنت تظن أنه رحيم غفور شكور. ولا تخاف إلَّا إذا اعتقدت أنه شديد العقاب ذي الطول. فانتهى الأمر أن عباداتك القلبية مبنية على اعتقاد كمال صفات الله، فإذا اعتقدت كمال صفات الله عمِل قلبك بما يجب من إفراده بالألوهية. هذا كله كان في جواب السؤال الأول.

نأتي إلى جواب السؤال الثاني وهو الأصل الثاني وهو:

[مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ].

اتَّفقنا أنه لمَّا انتهى المصنف-رحمه الله-من الكلام على الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه، ورأينا تحقيقه لهذا المفهوم تحقيقًا بديعاً، انتقل للأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

وقال في تعريفه:

[وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْخُلُوصُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ].

وناقشنا هذه الجملة **[الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ]** وقلنا الاستسلام بمعنى: الخضوع والذل له-سبحانه وتعالى-لأن من معاني مادة أسلم في اللغة: الطاعة والإذعان. قال الله-عزَّ وجلَّ-: {وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} والمسلم سمِّي بذلك: لخضوع قلبه وجوارحه لطاعة ربه. فتستسلم بماذا؟ فيستسلم قلبك وجوارحك لله بالتوحيد، يعني توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية. ثم إذا استسلم قلبك بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية: وقع الانقياد.

[وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ] تطيع المأمور بالفعل، وتطيع في المحظور بالترك.

واتَّفقنا بعد ذلك على جملة **[وَالْخُلُوصُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ]** اتَّفقنا أنه في النسخ الأصح **[الْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ]**.

وبعد ذلك وصلنا إلى جملة: **[وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ]**.

[وَهُوَ]: الضمير يعود على الإسلام، أو على دين الإسلام الذي جاء به الرسول-صلى الله عليه وسلم-.

---

(1) [سورة المؤمنون: 117]

المرتبة الأولى: الإسلام. **والمرتبة الثانية**: الإيمان. **والمرتبة الثالثة**: الإحسان.

الآن نرى ما العلاقة بين الثلاث مراتب، ثم نرى أركان كل مرتبة.

إذا تأمَّلنا في علاقة الإسلام بالإيمان أولًا، سنرى أن (كل مسلم لابد أن يكون مؤمن). هذه العبارة تحتاج إلى مزيد بيان من أجل ألَّا تشكل على طلَّاب العلم. أولًا أريد منكم أن تكتبوا لي تصوركم الأساسي عن العلاقة بين الإسلام والإيمان.

نتكلَّم عن علاقة الإيمان بالإسلام:

أولًا لا بد أن تتصوَّروا أننا نتكلَّم عن اجتماع الكلمتين: كلمة الإسلام، مع الإيمان. ليس المقصود افتراقهم؛ لأن كلمة الإسلام تحمل معنى الإيمان لو افترقت عنها. أنا أتكلَّم عن: الإسلام والإيمان كوصفين في حال شخص كيف تكون؟ أول الأمر لا بد أن تعلم أن:

كل مسلم لابد أن يكون مؤمنًا: (مؤمن) أي: معه أصل الإيمان، وهذا هو الفارق بين المؤمن والمنافق. فالمنافق لو أردت أن تصف حاله تقول: معه إسلام ظاهر لكن لم يدخل الإيمان إلى قلبه.

وبهذا وصف الله المنافقين ووصف منافقي الأعراب، لما وصفهم قال: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}، والعلَّة: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}[1] فكانت العلَّة ماذا؟

أنهم مسلمون، وليسوا مؤمنين، أن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، وهؤلاء هم منافقوا الأعراب، وهم الذين وصفوا في سورة التوبة أنهم يتخذون ما ينفقون مغرمًا، لأن الإيمان لم يدخل إلى قلوبهم، لذلك وصفهم أنه لم تُقبل نفقاتهم. لماذا لم تُقبل نفقاتهم؟ لأن الإيمان ما دخل إلى قلوبهم مع قيامهم بالأعمال الصالحة. لذلك لا يصلح أن يوصف مسلم بخلوِّه من الإيمان، لكن يصلح أن تصف المسلم بنقص إيمانه، لكن بخلوِّه من الإيمان نقلت وصفه من الإسلام إلى النفاق.

وليتبيَّن لك الأمر أكثر انظر هل تستطيع أن تقول عن شخص أنه مسلم وهو ينكر الله، أو ينكر كمال صفات الله، أو ينكر الملائكة، أو ينكر الكتب، أو ينكر الرسل؟ لا يمكن. انتفاء وصفه بأركان الإيمان يساوي أنه كافر، فهو ليس بمسلم إلَّا إذا آمن بكمال صفات الله على الإجمال، وآمن أن الله له ملائكة على الإجمال، وآمن أن له كتب على الإجمال، وآمن أن له رسل على الإجمال، وآمن باليوم الآخر على الإجمال، وآمن بالقضاء والقدر على الإجمال. ألم تسمع لابن عمر يقول: ((لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ))[2].

إذًا معناها ليسوا بشيء ولو أنفقوا مثل أحد ذهبًا. فإذا تبيَّن لك ذلك علمت أن الجملة المشهورة في التداول: (ليس كل مسلم مؤمن) علمت أنها تحتاج لضبط: (ليس كل مسلم كامل الإيمان) لكن لابد أن يكون كل مسلم معه أصل الإيمان. وهذا كما قلنا في بداية اللقاء مبني على اجتماع كلمة الإسلام مع الإيمان لحال الشخص، فكل مسلم لابد أن يكون معه أصل الإيمان. وليس ممكن أن

---

(1) [سورة الحجرات: 114]

(2) رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب مَعْرِفَةِ الإِيمَانِ وَالإِسْلاَمِ وَالْقَدَرِ وَعَلاَمَةِ السَّاعَةِ، 102).

ننفي عنه الإيمان ونثبت له الإسلام، إمَّا يثبت الإسلام وأصل الإيمان، أو ينفى أصل الإيمان ومعه الإسلام. أو نأتي لوصف غاية في الخطورة وهو وصف النفاق، هذا حال المنافقين فقدوا إيمان القلوب، قال الله تعالى عنهم: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}[1]

إذا تبيَّن لك ذلك، يأتي نقاشنا حول الإحسان وعلاقته بالإسلام والإيمان:

أولًا: نفهم ما معنى الإحسان، ثم نكوِّن علاقة بين الإحسان والإيمان والإسلام.

الإحسان نهاية الإخلاص، والإخلاص هو إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن. والإحسان اشتقاقه من الحسن، وكما اتَّفقنا هو نهاية الإخلاص. ينشأ الإحسان في القلب عن حقيقة استحضار كمال صفات الله-هذا من الباطن-ومن الظاهر ينشأ الإحسان مع كمال المتابعة. وتفسير الإحسان بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته، يعني الآن أفسِّر الإحسان بالنتيجة والثمرة.

ما النتيجة والثمرة من حسن العمل؟

أن يكون لله، وأن يكون متابعًا لسنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-.

متى يكون العمل حسن؟

عندما يطبَّق عليه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله. فيكون لله خالصًا في الباطن، وفي الظاهر يكون لسنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-متابعًا.

متى يكون إحسانًا؟

إحسان عندما يكون نهاية الحسن، الإحسان نهاية الإخلاص.

متى تكون في حال حسنة؟

عندما تكون مخلصًا متابعًا، فإخلاصك ومتابعتك سبب لأن تكون في حالة حسنة.

متى تكون محسنًا في جميع أجزاء أعمالك؟

الآن عندما تصل نهاية الإخلاص بها جميعًا مع المتابعة.

إذًا الإحسان مشتق من الحسن وهو نهاية الإخلاص. والإخلاص ناشئ من حقيقة الاستحضار مع كمال المتابعة. انظر لهذا الكلام في حاشية الأصول الثلاثة للشيخ عبد الرحمن ابن محمد القاسم-رحمه الله تعالى-

الآن، نكوِّن العلاقة بين الإحسان وبقية المراتب:

من المؤكد أننا نتَّفق على أن كل مسلم:

- لا بد أن يكون مخلص. وإخلاصه ما هو؟ أن يقوم بهذه الأعمال معتقدًا استحقاق الله-عزَّ وجلَّ-لها.
- وأن يكون متابعًا لسنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-.

(1) [سورة الفتح: 11]

إذًا حتى يكون محسنًا، لا بد أن يكون منه أعمال، وهذه الأعمال يظهر فيها الإحسان. كيف يظهر الإحسان في أعماله؟ بالإخلاص، أن يكون مخلصًا متابعًا.

عندما يأتي عند الصلاة مخلصًا متابعًا، وعند الصيام مخلصًا متابعًا، وعند القيام مخلصًا متابعًا، وعند الحج مخلصًا متابعًا؛ إذًا الإحسان سيقع على الإسلام عمليًا، هذا عندما يكون الإنسان المسلم معه أصل الإيمان. لو ترقَّى هذا المؤمن وقوي إيمانه، وأصبح كامل الإيمان، وأستطيع أن أقول عنه أنه مؤمن،

ماذا يكون الإحسان؟ من المؤكَّد أن إحسان المسلم الذي معه أصل الإيمان أقل من إحسان المؤمن كامل الإيمان، فكلَّما زاد الإنسان إيمانًا–من الباطن–كلَّما زاد إحسانًا.

مرَّة أخرى نقرِّر التقريرات بجمل خارجية ثم ندخلها على النقاش.

- اتَّفقنا أن كل مسلم لا بد أن يكون معه أصل الإيمان.
- ثم نقول: لو قوي إيمان عبد–نتكلَّم عن لفظة مؤمن الآن–هو مسلم معه أصل الإيمان، ثم يعلو إلى أعلى فيقوى إيمانه. فعندما يقوى إيمانه فأستطيع أن أطلق عليه اسم مؤمن، لأن لفظة مؤمن على واحد يقصد بها كامل الإيمان. لما أقول المؤمن كامل الإيمان أعلى من المسلم الذي معه أصل الإيمان، لماذا؟ لأن معه كمال الإيمان. أصلًا كيف يكون المؤمن قوي الإيمان؟ كيف؟ أنتم ماذا تقولون؟ ماذا تعتقدون يا أهل السنة والجماعة؟ هذا كيف يزيد إيمانه؟ الإيمان يزيد وينقص.

كيف يزيد إيمان المؤمن؟ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

الطاعة، ما هي؟ الطاعة هي أركان الإسلام وما يلحقها، لأن العبادات هي هذه الخمسة: إمَّا ذكر باللسان، إمَّا صلاة وما يتبعها من نوافل، وما يتعلَّق بها من أعمال من طهارة وإلى آخره، إمَّا صيام وما يتبعه من نوافل، وإمَّا زكاة وما يتبعه من صدقة، وإمَّا حج وما يتبعه من نوافل من عمرة وإلى آخره. هذه مجمل الأعمال التي يتقرَّب بها. إمَّا ذكر: شهادة أن لا إله إلا الله، والأذكار التي تتبعها، والقرآن، كلها تحت الذكر، وإمَّا صلاة أو صيام أو زكاة أو حج، إمَّا الفروض وإمَّا النوافل. هذا هو الدين: هذه الخمسة هي الأصلية وكل شيء وراءها. ثم يأتي في الحديث أن الجهاد ذروة سنام الإسلام. عن معاذ بن جبل أن النبي–صلى الله عليه وسلم –قال: ((رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ))[1] أصلًا لا يزيد إيمان المرء إلَّا حين يتعامل مع أركان الإسلام. فهذا المسلم معه أصل الإيمان، يكون عندي دائرة، مسلم معه أصل الإيمان ماذا يفعل؟ يقوم بأعمال الإسلام. ماذا يحصل في إيمانه؟ يزيد إيمانه. إذا زاد إيمانه ماذا يحصل؟ تزيد أعمال الإسلام. الواحد لما يزيد إيمانه يزيد عملًا. يعمل ماذا؟ ما يعمل شيء خارج عن أركان الإسلام أو ما يتبعها. تجد نفسك في دائرة مسلم معك أصل الإيمان، ملتزم الفروض ومعك أصل الإيمان، تعمل أعمال صالحة يزيد إيمانك، حين يزيد إيمانك ماذا يحصل؟ تشتاق لأعمال صالحة جديدة تعملها، يزيد إيمانك، ولما يزيد إيمانك تعمل أعمال صالحة، وهكذا. إذا انقطعت هذه الدائرة باستيلاء الشيطان عليك وخروجك إلى المعاصي ينقص إيمانك، ينقص عملك الصالح. ممكن يحصل نقص الإيمان والعمل

(1) رواه الترمذي في سننه، وصحَّحه الألباني.

الصالح إلى أن تجد نفسك في نقطة الصفر. البداية مسلم معك أصل الإيمان فقط، وترجع مرة ثانية تزيد إيمانك، وهذه معركة الحياة الدائرة التي ندور فيها.

هامش:

اعلم من أعظم ما يعذِّب النفس أن تبني إيمانًا في داخلها، ثم يأتي قاطع الطريق فيقطع عليها، سواء كانت النفس الأمَّارة بالسوء أو الشيطان، فتهدم البناء وتنقص إيمانك، ففكر مئات المرات قبل أن تذنب ذنبًا يهدم ما بنيت من إيمان. ولا تسأل عن كثرة ما بنا من ذنوب، بل استعجب من حلم الله علينا، كيف أنه مع ذنوبنا يفتح لنا أبواب للطاعة.

على كل حال، المقصد أنك في هذه الدائرة، دائرة ماذا؟ دائرة العلاقة بين الإسلام والإيمان. المؤمن الآن، كل مسلم لا بد أن يكون معه أصل الإيمان، لو قوي إيمان عبد يصبح مؤمن كامل الإيمان. نرجع للدائرة: دائرة مسلم معه أصل الإيمان، زاد في أعمال الإسلام، ماذا حصل؟ زاد إيمانه. أعمال الإسلام التي زاد فيها ما تتطلب منه إحسانًا؟ يعني أنت لما تقوم بالصلاة والصيام والحج، بين العمل وبين قلبك هناك قنطرة، لو استعملت الإخلاص مع المتابعة-بمعنى الإحسان-ماذا يحصل؟ تنفتح هذه القنطرة بين عملك وقلبك، فيكون عملك سبب لزيادة إيمانك، يعني ليس كل أعمالك سبب في زيادة إيمانك، لابن القيم كلام جميل حول هذه المسألة. هذه القنطرة مسدودة إلى أن تكون مخلصًا متابعًا، فإذا كنت مخلصًا متابعًا مستحضرًا فكَّت هذه القنطرة، وزاد عملك وإيمانك. كلَّما زدت إخلاصًا وتحرِّي في المتابعة، كلَّما انتفع قلبك بزيادة الإيمان من أعمالك، كلَّما تدفق من العمل أثر سريع على قلبك بزيادة إيمانك. لابن أبي جمرة كلام نقله ابن حجر في مسألة تشميت العاطس، كلام جميل معناه أن الإنسان يتعبَّد الله بعبادة يرتفع بسببها إيمانه، في هذا العمل الذي يأتي في ثواني. أنت تقول: (الحمد لله) على العطس، فتستحق أن يقال لك: (يرحمكم الله). فلو امتلأ قلبك لحظة ما تقول: (الحمد لله) حمدًا وشكرًا وثناءً على الله، ابن أبي جمرة يقول كلام معناه: زاد إيمانك زيادة قد لا تحصلها في كثير من الأعمال، لأن كل القضية في عمل القلب.

المعنى الآن: أننا في دائرة تحتاج إلى دقة في فهمها، فإذا استطعت أن تبلغ مرتبة الإحسان في أعمالك فزت باسم محسن، وإذا حقَّقتها في جزء يسير من أعمالك فلا تيأس، الإحسان تراكم تحصِّله في صلاتك وصيامك وذكرك وتقرُّبك وتقلُّبك في ليلك ونهارك وذكرك واستشعارك لنعمة الله وإحسانك للمخلوقين، فأنت تحصِّل ما يزيد إيمانك وما يظهر إحسانك في أحوال لا تتصوَّرها.

إذا عم حالك الإحسان: الذي هو حقيقة الاستحضار مع كمال المتابعة، أصبح اسمك محسنًا. يعني أنت في الأصل اسمك مسلم: أي معك أصل الإيمان، هذا متَّفق عليه. كلَّما ازددت في أعمال الإسلام-تبدأ الدائرة من هنا-كلَّما زاد إيمانك، لكن شرط في التحرُّك في الزيادة، ما تحصل الزيادة إلَّا مع وجود الإخلاص، فكَّلما زدت إخلاصًا كلَّما كنت موصوفًا أكثر بالإحسان. فالإحسان مرتبة أعلى من الإيمان. لما تنصبغ كل حياتك بالإحسان اسمك يعلو. ممكن تكون مؤمن زاد إيمانك، وإيمانك قوي واعتقاداتك قوية، وأعمالك فيها قوة، لكن يفوتك في بعض الأعمال بقاء الاستحضار، بل يفوتك في بعض أحوال حياتك استحضار معيَّة الله، ويفوتك في بعض

أحوال حياتك متابعة سنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-، يكون غافل أنه في مثل هذا الحال متابعة للسنَّة، وهذه المرتبة الأعلى. سنمثِّل الإسلام والإيمان والإحسان بالدوائر.

مرَّة أخرى: الإحسان نهاية الإخلاص. أنت نفسك في درجات إخلاصك-الإخلاص له درجات-كلَّما زدت إخلاصًا أتت قوة إحسانك. الإخلاص إيقاع العمل على أكمل وجه في الظاهر والباطن: في الظاهر بالمتابعة، في الباطن بقوة الإخلاص.

س/ هذه المرحلة تحتاج إلى علم غزير وصدق طلب من الله؟ صحيح.

س/ لماذا يعلو أهل الإخلاص؟ لأنها من المراحل العظيمة.

س/ الإخلاص والمتابعة هما شرطا قبول العمل؟ هما معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله.

سأنقل كلام من حاشية الشيخ عبد الرحمن بن القاسم-رحمه الله-يقول:

"فالإحسان أعلى المراتب، وأعمها من جهة نفسها، وأخصها من جهة أصحابها، وهذه الجملة ذكرها ابن تيمية-رحمه الله-في فتاواه في الكلام حول علاقة الإحسان بالإيمان، قال: "كما أن الإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه، ولهذا يقال كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن محسن، وكلَّما أُطلق الإحسان فإنه يدخل فيه الإيمان والإسلام، فإن الإسلام والإيمان والإحسان دوائر، أوسعها دائرة الإسلام ثم يليها في السعة الإيمان، ثم أضيقها الإحسان، ودائرة كل واحدة محيطة بالأخرى، ومعلوم أن من كان في دائرة الإحسان فهو داخل في الإسلام والإيمان، وإذا خرج من الأولى فهو داخل في الثانية، وهي دائرة الإيمان، وإذا خرج عنها فهو داخل في الثلاثة وهو دائرة الإسلام، ومن خرج عن هذه الدوائر الثلاث فهو خارج إلى غضب الله وعقابه، وداخل في دوائر الشيطان والعياذ بالله، فظهر بالتمثيل بهذه الدوائر صحة قول من قال: كل محسن مؤمن مسلم".

نرى الآن: نرسم. فيه نوعان من الدوائر. لو أتينا نرتِّب مراتب الدين من جهة أصحابها.

عندنا جهتان ننظر فيها لمراتب الدين:

- من جهة أصحابها.
- ومن جهة نفسها.

من جهة نفس الأعمال التي يقوم بها المؤمن، ونفس الأعمال التي يقوم بها المحسن.

نفس الأعمال التي يقوم بها المسلم: هذه نقول عنها من جهة نفسه، من جهة نفس المرتبة.

ومن جهة أصحابه: أي من يسمى بهذا الاسم.

نرى الآن من جهة أصحابه: والظاهر هم الذين تكلَّم عنهم، قال: "أوسعها دائرة الإسلام" هذه من جهة أصحابه. نأخذ دائرة الإسلام، الذي اسمه مسلم أوسع شيء، داخلها "ثم يليها في السعة الإيمان" هذا اسمه مؤمن، نتكلَّم عن أسمائه "ثم أضيقها الإحسان" هذا اسمه محسن، فهذه العلاقة بينهم، أن المحسن لا بد أن يكون مؤمنًا مسلمًا، فإذا خرج من دائرة الإحسان لابد أن يكون داخل في دائرة الإيمان، وإذا خرج من دائرة الإيمان لابد أن يكون داخلًا في دائرة الإسلام، هذا من جهة أصحابه.

نرى من جهة نفسه: الأعمال. فلو أعبر بأقل الأعمال أتكلم عن الدائرة الضيقة، أعمال الإسلام: أعمال المسلم الذي معه أصل الإيمان. من أكثر منه أعمالًا؟ المؤمن أعماله أكثر، يعمل أعمال المسلم وزيادة، إذًا دائرة في الداخل، الدائرة الضيقة هي أعمال المسلم، التي أوسع منها هي أعمال المؤمن، التي أوسع منها أعمال المحسن.

إن شاء الله يكون متبينًا لكم هذا الجزء.

قال: **[وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.**

فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ].

هذه الأركان وردت في حديث ابن عمر-رضي الله عنه-قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:

((بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ))[1]

وكما ذكر ابن رجب-رحمه الله-أن المراد من هذا الحديث: أن الإسلام مبني على هذه الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه، والمقصود تمثيل الإسلام بالبنيان، ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان وهو قائم، لا ينقض بنقض ذلك، بخلاف نقص هذه الدعائم فإن الإسلام يزول بفقدها جميعًا بغير إشكال، وكذلك يزول بنقض الشهادتين، أمَّا إقام الصلاة فقد وردت أحاديث مقصودة تدل على أن من تركها فقد خرج من الإسلام، وذهب

(1) رواه البخاري، (كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس»، 8)

إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف، وذهبت طائفة منهم إلى أن من ترك شيئًا من أركان الإسلام عمدًا أنه كافر بذلك". هذا الكلام ذكره الحافظ ابن رجب-رحمه الله-في شرحه للحديث الثالث في جامع العلوم والحكم.

وهذا الفهم يساعدك على فهم العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان، زيادة الأعمال الصالحة تسبب زيادة الإيمان، من ثم يكمل البناء، ويرتفع البناء إلى أعلى، ومن ارتفع بنيانه على أسس سليمة رفعه الله عنده.

قال:

[فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنَ الإِثْبَاتِ {لا إِلٰه} نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ {إِلَّا اللهُ} مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: 26 . 28].

كلهم شهدوا على لا إله إلَّا الله. هنا بدأ المصنِّف بذكر الأدلة على الأركان، والآية التي ساقها دليل على أن الشهادة التي شهدها الله والملائكة عظيمة. يعني هذه الآية دلَّت على أعظم شهادة، مِن أجلِّ شاهد، لأعظم مشهود به. فأعظم شهادة هي شهادة التوحيد، من أجلِّ شاهد وهو الله-تعالى-ثم الملائكة مِن أجلِّ من شهد، ثم أولوا العلم أيضًا مِن أجلِّ من شهد، على أعظم مشهود به وهو أنه لا إله إلَّا الله. إذًا دلَّت الآية على أعظم شهادة، مِن أجلِّ شاهد على أعظم مشهود به.

قال **[وَمَعْنَاهَا]** -أي معنى الشهادة-لا معبود حق إلَّا الله وحده.

نأتي الآن إلى معرفة كيف خرج المؤلف لهذا المعنى.

قال: (لا إله إلا الله) **[مَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ]**

نأتي إلى أصل كلمة (إله): من مألوه، من أله-يأله-إلاهةٌ. وأقرب معنى يذكر مباشرة في لغة العرب: عُبِد-يعبد-عبادةٌ. ويذكر كثيرًا من أهل النحو أن التألُّه في لغة العرب يعني التعبد المبني على المحبة والتعظيم. (فلا إله) يعني نفي للمتعلق المعظم. لا: نافية للجنس، إله: اسمها. الخبر: محذوف. النحويون-يعني النحويون -يقدرون هنا خبر لا -لا التبرئة يسمونها-يقدرونه بموجود، يعني أنت جاءك خبر فيه نفي. اللام نافية لجنس المعبودين. (لا معبودين) ما بهم؟ لم يأتِ الخبر. اتركي الاستثناء، انظري للجملة، يوجد جملة خبرية منفية، كأنك تقول: (المعبود موجود) دخلت عليه لا النافية صارت (لا معبود موجود) ثم أدخلي الاستثناء (إلا الله). والعرب ليس من شأنها أن تطيل فتضع خبر لا النافية للجنس، خصوصًا في الجملة التي داخلها استثناء، هذا من بلاغتهم، أن لا نافية للجنس وداخل عليها الاستثناء يحذفون الخبر، لأنه معلوم في الذهن.

يأتي الخلاف في تقدير الخبر، يوجد تقدير يصلح وتقدير لا يصلح، الذي يقوله مباشرة النحويون موجود-لا إله موجود إلَّا الله-أو: لا معبود موجود إلَّا الله. نقول: لا يصح أن نقول: لا إله موجود إلا الله، لأنه في الواقع تجد آلهة كثيرة موجودة غير الله، فتجد من يؤلِّه

الشجر والحجر والأشخاص والبقر والفئران وبوذا إلى آخره {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[1] آية لقمان قرَّرت أن هناك من يُدعى من دون الله. ما الذي يصلح؟ آية لقمان بيَّنت: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} جاءت كلمة حق، بأن الله هو الإله الحق {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ} بماذا تقدر خبر لا؟

آية لقمان تقرر لك تقريرين:

- أن الله هو المعبود الحق.
- أن كل أحد يُدعى من دون الله باطل.

اجمعيها في جملة فيها نفي وإثبات حتى تحصرين الحق على الله. ماذا ستنفين عن غير الله؟ يعني أنت وصفت غير الله أنه باطل، يعني تنفي عنه أن يكون حقًا، إذاً لا معبود بحق إلا الله، بجملة أخرى: كل ما يعبد من دون الله باطل، والله وحده هو الحق أو هو الذي يعبد بحق. يعني آية لقمان تبيّن المعنى، تبيّن كلمة (حق)، لا معبود يستحق العبادة إلَّا الله. وهناك من الأدَّلة الكثير التي تدل على معنى لا إله إلَّا الله.

طلَّاب العلم لابد أن يعرفوا الأدلَّة التي من خلالها نعلم من أين أتينا بمعنى: لا إله إلا الله، قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ}[2]

ما هي الكلمة السواء؟ هي التي نستوي نحن وأنتم فيها. ما هي؟ فسَّرها بقوله الله-عزَّ وجلَّ-: {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا}. إذًا هذه الكلمة السواء بيننا وبين غيرنا التي قال عنها: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[3] ما معنى {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}؟ معناها: {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} يعني كل أحد دون الله لا يستحق أن يُتخذ ربًا. معنى هذا: لا إله معبود بحق إلَّا الله.

تكليف:

وددت أن تأتوا بآية مشابهة لآية لقمان لتأييد المعنى في نفوسكم، وتتصوَّروا معنى لا إله إلا الله بالأدلَّة. ابحثوا في هذا الأمر. النصوص تصف الله بأنه الحق وتصف غيره بأنه باطل.

قال: [{لا إله} نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

{إِلَّا اللهُ} مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ].

وأما الجملة الأخيرة فمتبيّن أنها سبب: كما أنه ليس له شريك في مُلكه، كذا ليس له شريك في عبادته. كما أنك تؤمن أنه ليس له شريك في ملكه فكذا ليس له شريك في عبادته.

(1) [سورة لقمان: 30].
(2) [سورة آل عمران: 64]
(3) [سورة الأنبياء: 25]

أتى يفسِّرها الشيخ، قال:

[وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: 26 . 28]].

هذا إبراهيم الخليل يتبرَّأ من الآلهة–لا إله–الآلهة التي عليها قومه، ويلزم من ذلك أن يتبرأ منهم هم أيضًا، كما وصف–عليه السلام– أنه تبرأ من الشرك وأهله، الشرك: نفس الأصنام، وأهله: المقصود أقرب الناس إليه، أبوه، قومه أهل بابل، ملكهم النمرود. قال: {إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ}: أي من الأصنام، يعني: لا إله. {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} يعني برأني وابتدأ خلقي، ومن هو؟ هو الله. ومن هنا أتى الشاهد أن سبب توحيدي لله: أنني أعلم يقينًا أنه لم يفطرني غيره، وأعلم يقينًا أنه لا يقضي حوائجي غيره {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ}[1] فإذا علمت أنك مبتلى بالضر، ابتلاك يختبرك. فتبيَّن أنه لا كاشف له إلَّا هو. قال {فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} هنا السين للتوكيد، ومعناها أي: يرشدني ويوفِّقني إلى سلوك الصراط المستقيم. و{وَجَعَلَهَا} وهي كلمة التوحيد {إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} فجعل هذه الكلمة العظيمة التي هي كلمة التوحيد {بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} ورَّثها أبناءه {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} من الشرك إلى تحقيق هذه الكلمة. والحقيقة أن هذه الآية من الآيات العظيمة في تثبيت الاعتقاد، ولا يمل من شرحها، وإذا كنتم ممن يقرأ للشيخ–رحمه الله–تجدونه يكثر من الاستشهاد بها. ويمكن أن تأتي بدلالة نحتاجها كلنا في التربية: لا بد من التربية على التوحيد، لا بد من تلمُّس الفرص ودقائق الأحوال التي لا يعيشها مع الأبناء إلَّا آباؤهم وأمهاتهم. كلميهم لا تملي، كل موقف قولي نفس الكلام، كرري: ما لنا إلَّا الله، لا ينجينا إلَّا الله، لا يكشف الضر إلَّا الله. ورثيهم الهدى والصلاح. ترى لا صلاح إلَّا بالتوحيد، أدخليهم جنة الدنيا، علِّقيهم بربهم، ألَّا ترى إبراهيم–عليه السلام–وحرصه على ذريته هنا في آية الزخرف؟ {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}. وإذا راجعتم في سورة البقرة، قال تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ}[2] حتى الآية الثانية التي فيها دعاء لنفسه ولأبنائه بالبعد عن الشرك قال: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ}[3] هذا كله فيه دليل على أن العبد لابد أن يستولي عليه هذا الهم، لا بد أن يستولي عليك هم اعتقاد أبنائك. تلمَّس كل الفرص، لا تستهين، وتكلم بما تعلَّم علمًا يقينيًا وترى بشائر أهل التوحيد آتية، فنحن نرى شباب عاشوا التوحيد في طفولتهم ودرسوا التوحيد في تعليمهم، ولقَّاهم الله بمعلمين أوفياء علموهم التوحيد في المدارس، ثم شطوا بعيدًا، ولعبوا كثيرًا، ولمَّا استوى سوقهم ما ظهر منهم إلَّا التوحيد، ونضجت ثمار التوحيد نضجًا عجيبًا لأن التوحيد بنفسه مبارك، وأهله مباركون، فإنك تجد آثاره في المطعوم و المشروب، ترى آثاره في انشراح القلب والرضا عن الرب، ترى آثاره لما ترى أن لا ملجأ ولا منجى من الله إلَّا إليه، ترى آثاره لما لا تحمل هم الأسباب، ترى آثاره لما تعلم أن البركة من الله، فتطلبه البركة في أوقاتك وأعمالك وأعمارك، ترى آثاره لما لا تيأس من روحه لا في نفسك ولا أبنائك ولا في زوجك، ترى آثاره لما تعلم أن انتظار الفرج عبادة.

فيا حسرتاه على من عاش الحياة ليس بموحد، وعلى من مات ولم يذق أحلى ما في الحياة. أن تجد يا عبد يا ضعيف سندًا ملازمًا بعدد أنفاسك، هذا لا يجده حتى ملوك الدنيا، فكيف أنت في نظر الناس ضعيفًا، وأنت مستقر في قلبك قوَّتك أنك آوي إلى ركن شديد.

---

(1) [سورة الأنعام: 17]

(2) [سورة البقرة:132]

(3) [سورة إبراهيم: 35]

إذا بقينا نحمد الله على نعمة التوحيد ربما انقضى العمر ولم نوفِّ الله-عزَّ وجلَّ-حقه، بل ينقضي العمر ولم نوفِ الله-عزَّ وجلَّ-حقه. سبحان من أعزَّنا بالتوحيد!

العجيب أن الناس يصرون إصرارًا على أن يذلُّوا أنفسهم، فنسأله-سبحانه -ألَّا يعلِّقنا إلِّا به، وأن يحسن ظنونا به، وأن يقطع آمالنا في غيره، فلا نضع حاجاتنا عند غير بابه.

تأملت فوجدت أن أشقى أهل العالم من كان فيه شركاء متشاكسون، وأسعدهم من كان رجلًا سلمًا لرجل.

فنسأله سبحانه كما امتن علينا بأن علَّمنا، أن يزيدنا توحيدًا، وأن يجعل كلمة لا إله إلَّا الله بها نعيش، وعليها نموت، وتكون سببًا لتثقيل موازيننا لما نلقاه، اللهم آمين.

انتهى اللقاء.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من النعم العظيمة التي يلزمنا شكرها نعمة أن علَّمنا الله التوحيد، ويسَّر لنا بمنَّته وكرمه هذه الاجتماعات المباركة، مع تباعد الأرض، ومع ضيق الأوقات، لكنه-سبحانه-وحده الذي يجمع وييسِّر ويبارك. نسأله-سبحانه وتعالى-أن يجعلنا من الشاكرين على هذه النعمة. إذا بقي قلب العبد متعلِّق بشكر نعمة الله بالعلم، جعل الله-عزَّ وجلَّ-الشكر سببًا لوصل النعم. فسبحان من ابتدأ بالنعم وهو المنان، وسبحان من شكر من يشكر النعم وهو الشكور. نسأله بمنِّه وكرمه كما علَّمنا التوحيد، وكما يسَّر لنا سبل الاجتماع، أن يتقبل منا هذه الدقائق والساعات في سبيله، وأن يجعلها سببا لكفارة ذنوبنا، فما نحمله على عواتقنا من الذنوب كافٍ لإهلاك أمة، لكن هو الحليم الذي مع ذنوب عباده يحلم عليهم، ويفتح لهم أبواب الخيرات علَّهم يتوبوا. نسأله-سبحانه وتعالى-أن يتقبَّل منا أعمالنا، وأن يرزقنا الإخلاص والإحسان في القول والعمل.

لا زلنا نتكلم عن الأصل الثاني، ومرَّ معنا:

معنى (لا إله إلا الله)، وهي تتضمَّن: النفي والإثبات.

النفي

(لا إله) : نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

والمقصود: أنك حال ما تقول "**لا إله**" تكون نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله من الصالحين، أو الطالحين، أو من الجمادات، أو من المتحرِّكين. كلهم تعتقد أن عبادتهم باطلة.

الإثبات

(إِلَّا اللهُ) : مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ.

يعني تقول أيها الموحد: " **إلا الله**" مثبتًا أن الله وحده هو المستحق للعبادة.

وقد تقدَّم ذكر أنواع العبادة بالتفصيل. و**[كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ]** هذا استدلال من الشيخ. أخذ بطريقة القرآن التي تقدم ذكرها وهو الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة.

الآن: إذا أردت أن تشرح لأحد معنى (**لا إله إلَّا الله**) لا بد أن تستخدمي في ذلك النصوص التي تفسِّر كلمة (لا إله إلَّا الله). فمن بين النصوص التي تفسر (لا إله إلَّا الله) هي آية الكرسي. لما تأتين تشرحين (لا إله إلَّا الله)، تقولين:

لماذا (لا إله إلا الله)؟ لأن الله موصوف بكمال الصفات. والدليل: لما قال في آية الكرسي: (الله) لماذا؟ {اللهُ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ} لأنه حي قيوم. إلى أن تصلي إلى {الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}. لما تصلي إلى {الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} يتبيَّن لك:

- أنه هو وحده الموصوف بالكمال الذي يستحق التعلُّق؛ لأنه هو وحده العليّ على الحقيقة.
- وهو الذي يستحق وحده التعظيم على الحقيقة، لأنه هو العظيم على الحقيقة.

ثم تأتي الآية التي بعدها: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ}.

ما هو الرشد من الغي؟

الرشد: ألَّا يكون في قلبك إله إلَّا الله.

الغي: أن تعبد غيره، أو تتعلَّق بغيره، أو تعظِّم غيره.

هذا المعنى الآن الذي يكون في (لا إله إلَّا الله) معتمد على وصفه بأنه كامل الصفات-سبحانه وتعالى-.

بعد أن تشرح آية الكرسي باختصار من جهة (لا إله إلا الله)، يأتي بعده تشرحين آية لقمان: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}[1] هذا الموطن هنا يشرح: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ} (الرشد) الذي قد تبيَّن، ما هو الرشد؟ الرشد أن الله هو الحق. {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ}[2] هذا الغي. إذا كان الله هو الحق وما يدعون من دونه هو الباطل، و {وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} تبيَّن لك اجتماع الصفتين العلي العظيم والعلي الكبير، لأن من تفسير العظيم تفسيرها بالكبير: أن له العظمة والكبرياء، فيتبيَّن لك: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[3] هناك في آية الكرسي {الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

إذًا ماذا تفهم؟ تفهم أن لا إله يستحق التعلُّق والتعظيم إلَّا الله، يستحق أن أعتقد أنه عليٌّ عظيم، عليٌّ كبير، إلَّا الله.

الإشكال: أن كثيرًا من الناس لما جهلوا اللغة، يتخذون-في الواقع-غير الله آلهة، لكن لا يسمونهم آلهة، يسمونهم المشايخ، والصالحين، والأولياء، والأضرحة، والمقامات، كل هذه أسماء لحقيقة واحدة. ما هي الحقيقة الواحدة؟ أنهم آلهة. فقط هي أسماء مغايرة، وإلَّا في الحقيقة هم آلهة. كل ما عبد من دون الله: شجر، حجر، شيطان، ولي، كلهم على حد سواء يُعتبرون آلهة، لماذا؟ لأنه صُرف لهم اعتقاد لهم: وصف العلي الكبير، العلي العظيم.

(الله لا إله إلا هو) لماذا؟ لأنه موصوف بهذه الصفات، ثم اعلم أنه هو العلي العظيم.

وفي لقمان: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}.

---

(1) [سورة لقمان:30]

(2) [سورة لقمان:30]

(3) [سورة لقمان:30]

لماذا هو الحق وهم الباطل؟

لأنه هو وحده العلي الكبير، وكل أحد غيره لا تتخذه عليًا كبيرًا، لأنه ليس عليًا كبيرًا.

لماذا تعظيم غيره والتعلُّق بغيره باطل؟

لأنه ليس على الحقيقة عليٌّ كبير.

فأتى الإشكال: أن العرب لما عبدت الأصنام والأوثان، وعبدت ذاك الرجل الذي يلت السويق، وعبدت مناة الشجرة، وعبدت من تعظِّم من أشخاص، لما عبدتهم سمَّتهم آلهة، فهمت أن هذا الذي ستعظِّمه وتعلَّقت به اسمه: (آلهة).

الآن لمَّا ضعفت اللغة، هم في داخل أنفسهم مؤلِّهين لهم، ولكن لما يتكلَّمون لا يسمونهم آلهة، لما تأتي كلمة (لا إله إلَّا الله) يقول: أنا ما اتخذت غير الله إلهًا. نقول: هل أنت فاهم ما معنى أن يكون إله؟ أي أحد يصل درجة العلو المطلق في ذهنك، والتعظيم المطلق في ذهنك، في قلبك يكون عليٌّ عظيم، موصوف بالصفات المطلقة والعظمة المطلقة، ثم تتعلق به على أنه علي، وتعظمه على أنه عظيم تعظيمًا مطلقًا وتعلقًا مطلقاً، خلاص اتخذته إله. فأنت لما تقول (لا إله إلا الله)، معناه أنك تقول: لا أعتقد أن أحداً تكون له العلو المطلق والعظمة المطلقة إلا الله، لأنه هو العلي العظيم كما في آية الكرسي، لأنه هو العلي الكبير كما هو في آية لقمان.

الآن نتكلَّم عن التفاصيل في اعترافك بـ (لا إله إلا الله).

قال: [وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: 26 . 28]].

من أجل أن تكون حقيقةً مؤلِّهًا لله، ولست مؤلِّهًا لغيره-أي نافيًا تعلُّقك وتعظيمك لغيره-لا بد أن تتبرأ من غيره. ثم أتت الآية الثانية التي تفسِّر التوحيد التي ذكرها الشيخ في المتن:

[وقَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64]].

هذه آية أخرى تدلنا على تفسير (لا إله إلَّا الله). يقول الله-عزَّ وجلَّ-فيها:

- {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا}: أي هلمُّوا وأقبلوا.
- {إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ}: يعني الكلمة العادلة.
- ما هي الكلمة السواء؟ {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ}، وهذا فيه نفي (لا إله). (إلَّا الله) هذا إثبات.
- {وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا}: أي هذا لبيان أن العبادة لا تتم إلَّا بالتخلِّي عن الشرك. لأن من عبد الله وأشرك معه غيره، تركه الله وشركه. ما حقق المعنى المطلوب من العبادة.
- {وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ}: هذا من مقتضيات كلمة الإخلاص، فكونك لا تتخذ مع الله أحدًا ربًا مطاعًا تفرض عليك طاعته، ((كما ورد في حديث عدي بن حاتم-رضي الله عنه وأرضاه-أنه لما تلا النبي-صلى الله عليه وسلم- {اتَّخَذُواْ

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ} قال: يا رسول الله لسنا نعبدهم؟ قال: أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى. قال: ((فتلك عبادتهم))[1]

اجتمع هنا 3 معانٍ في تفسير لا إله إلَّا الله:

1. {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ}: تنفي العبادة عن غيره وتعبده وحده.
2. {وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا}: هذا لبيان أن العبادة لا تتم إلَّا بالتخلي عن الشرك.
3. {وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ}: أن كلمة الإخلاص لا تتم إلَّا إذا كانت الطاعة المطلقة لله.

وهذا الأمر: (مسألة الطاعة المطلقة) لا تتصوَّر أننا بعيدون عنه؛ لأن كثيرًا من بلدان العالم الإسلامي تحكم بغير ما أنزل الله، والذي خلا في محاكمه من الحكم بغير ما أنزل الله، تأتي في خواص الأحوال تجد أنهم يحكمون بالعادات والتقاليد وما يسمُّونه بـ (السواليف المحلية)، فترى لا يوجد فرق بين القوانين المنظمة في المحاكم، وبين ما يقع فيه كثير من أهل البادية في الغالب في كثير من أقطار العالم الإسلامي في التحليل والتحريم بسواليفهم.

السواليف أي: بما سلف الذي يتوارثوه. فهم يحكمون بغير ما أنزل الله من غير ما يشعرون.

مثلًا:

- أن يكون الإرث خاص للرجل.
- وبعضهم الإرث للولد البكر فقط.
- بعض الأقطار تحرِّم بنت العمة وبنت الخالة، تحرِّم للزواج على أنهم يسهِّلون مسألة الاختلاط!

سواليف كثيرة فيها عادات تحريم وتحليل. نحن متخيلين أن الحكم بغير ما أنزل الله هذا في المحاكم. نحن غير متصورين أنه يحصل في بيوتنا. قد نكون ناس عندنا دين لكن غير متصورين أن قبول مثل هذا، وعدم إنكاره، وعدم الرد عليه، نوع من أنواع الرضا بالحكم بغير ما أنزل الله. نسأل الله قريبًا أن ييسِّر لنا جمع ما نتمكَّن به شرح مثل هذا. لو تيسَّر لكم أن ترسلوا لي من مجتمعكم شيء من المسائل التي تكون عبارة عن أحكام وضعية، لكن ليس في المحاكم، تكون في العادات والتقاليد، تكون حاكمة تنزل على كل هذا المجتمع، قبيلة معينة، قرية معينة لها الحكم الخاص. لما يتبيَّن لكم تجدوا في قلوبكم فزع أنك ربما تكون راضٍ بالحكم بغير ما أنزل الله وأنت غير شاعر بذلك. حتى لو ما كنت تحكم لكن ترضى بالحكم بغير ما أنزل الله، ثم لا تستبعد عن نفسك مع الأيام ربما تقع في ذلك.

ننتقل إلى دليل شهادة أن محمد رسول الله:

ما هو الدليل؟ **[قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة:12]]**.

هذه الآية دليل على أن محمدًا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وفيها بيان أن الله-عزَّ وجلَّ-امتن على هذا الأمة ببعثته الرسول

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (67/7)، حسن.

-صلى الله عليه وسلم-. وصف هذا الرسول بأنه من أنفسهم، فهم يعرفون صدقه ونسبه، ويمكنهم الجلوس معه ومخاطبته وسماع كلامه، ليس بغريب عليهم. ثم وصف-صلى الله عليه وسلم-بوصوفات يأتي الكلام عليها في الأصل الأخير-الأصل الثالث من نبيك -المهم أن من دينك أن تعرف معنى شهادة أن محمد رسول الله.

[وَمَعْنَى شَهَادَةَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إِلا بِمَا شَرَعَ].

وهذا الكلام متين، أي ممتون يحتاج إلى شيء من التفصيل.

وهذه المسألة عظيمة الفائدة لطالب العلم، أن يفرق بين الحقوق:

الآن الأمة مشكلتها الحقيقة: عدم التفريق في الحقوق بين حق الله، وحق الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وحقوق الأولياء، وحقوق الصالحين. ربَّما تبيَّن لنا شيء من هذا لما أتت أزمة الاعتداء على النبي-صلى الله عليه وسلم-من الأراذل، لما أتت هذه الأزمة وقام الناس بحملة بتعريف الناس بمكانة النبي-صلى الله عليه وسلم-كما يعبرون، وهذا التعبير صحيح في الدفاع عنه.

تبيَّن أنهم يبنون في مكان خاطئ، يأتون ويعظِّمون النبي-صلى الله عليه وسلم-قبل تعظيمهم لله، فتجد النفس خالية، ما فيها تعظيم لا لله، ولا لرسوله، ثم تأتي حملة لتعظم الرسول والنفس خالية. ماذا يحصل؟ يكون الناتج أنه يستقر في القلب تعظيم الرسول-صلى الله عليه وسلم-بدون ما يكون مبنيٌّ على تعظيم الله-عزَّ وجلَّ-. ما هي النتيجة؟ أن يصبح النبي-صلى الله عليه وسلم-له مكان في القلب، والله ليس له مكانة في القلب. من أجل ذلك تجدهم طول الوقت يقولون: مشتاقين لرؤية النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولا يكلِّمونك عن شوقهم لرؤية الله. يقولون: لو اطَّلع علينا النبي-صلى الله عليه وسلم-ما فعلنا كذا، واطِّلاع الله عليك أين مكانه في قلبك؟! ترى عدم التوازن في مثل هذا الطرح، لذلك المفروض لما يطرح موضوع مثل هذا لابد من التحدث أولًا عن: كمال صفات الله. أنه هو الوهاب، وهو المُرسل، وهو الذي أيَّد، وهو الذي أعطى، وهو الذي شهد لصدقه، وكل الكلام عن الله ومكانة الرسول عند الله، ونحن نحبه لأن الله يحبه. فكونك تنتقل بعيدا عن هذا المعنى، يسبب الخلل في نفس من تخاطب.

على كل حال، المقصد: أنت تحتاج أن تتغذَّى بهذا المعنى، ويكون دورك في المجتمع هو التفريق بين الحقوق، وهذه دعوة-نرجو من الله أن يجعلكم سببًا لنشرها-تعليم الناس حق الله وحق الرسول-صلى الله عليه وسلم-وحق الأولياء الصالحين، خصوصًا في مجتمعاتكم هذا الخلط الحاصل بين الحقوق، يجعل الناس بسهولة يثورون على الرجوع للكتاب والسنَّة، لأنه سيهدم في داخلهم تعظيمًا لأحد. نحتاج لأن نكون دقيقين في طرح مثل هذه المسائل.

أول الأمر-بدون الكلام عن الأولياء وعن الصالحين-عظِّم الله في قلوب الناس:

كلمهم عن آية الكرسي، وعن سورة الإخلاص، عن أواخر سورة الحشر، أوائل الحديد. كلمهم وخذ معهم ما استطعت من زمن، يتهيؤون أن يأتي هنا الكلام حول المتابعة، وأن الله أرسل رسوله، فيأتي الكلام عن الرسول وعن تعظيمه، والمتابعة حتى ندفع البدعة، ثم يأتي بعد ذلك الكلام عن حق الصالحين، وأنت في هذا كله دائر تتكلَّم عن حق الله العظيم الحق المطلق.

[طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ].

المقصود: طاعته في كل الذي أمر، و(ما الموصولة) من صيغ العموم، أي في كل ما أمر به.

السؤال: لماذا سأطيع الرسول؟

- لأنه رسول من عند الله.
- لأنه أمرك بأمر من أرسله وهو الله. لأن الأمر ليس من عنده، بل هو من عند الله، وهو-صلى الله عليه وسلم-لا يشرّع من عنده ولكن من عند الله، وهو لا ينطق عن الهوى، وأنت تعلم هذا.

فإذا تبيَّن لك هذا، من المؤكد أنك ستفهم قوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}[1] وكثير من الناس لا يتَّزن في مثل هذه الشهادة، ما الذي يكون في قلبه؟ يكون في قلبه أن الرسول-صلى الله عليه وسلم-معظَّم، محبوب، لكن لما يشرّع يتجاوز شرعه، غير مستوعب أن ما يشرّع الرسول-صلى الله عليه وسلم-إنَّما هو شرع من عند الله.

اتَّفقنا أن معنى شهادة أن محمد رسول الله: طاعته فيما أمر. فمحبَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-لا بد أن تكون لها آثار، وأهم آثارها: أن يطاع فيما أمر. وإذا أطعته فيما أمر لا تتصوَّر أنك تطيع شخصه، إنَّما يطاع الرسول-صلى الله عليه وسلم-لأنه يأمر بأمر الله. فشرعه-صلى الله عليه وسلم-هو شرع الله تعالى، قال تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ}.

[وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ].

أي: لا بد من تصديق الرسول-صلى الله عليه وسلم-فيما أخبر به. ومن كذَّب الرسول-صلى الله عليه وسلم-في أخباره فهو لم يحقِّق معنى شهادة أن محمدًا رسول الله. وكثير من العباد على جهل وخصوصًا الذين تربوا في أحضان المتصوِّفة، لا يعرفون مكانة السنَّة، يحسبون أن السنَّة هي صحيح البخاري وصحيح مسلم، ماذا يفعلون به؟ يقرؤونه، لماذا؟ للتبرُّك! وهذا يكون في رمضان. يختم صحيح البخاري في بعض المساجد في رمضان سردًا، يحتفلون في ختمه، ولم يستفيدوا حرفًا واحدًا منه لا في أفعالهم ولا اعتقادهم! مثل هؤلاء تأتيهم الأخبار عن النبي-صلى الله عليه وسلم-فلا يقبلونها، أو الأوامر فلا يقبلونها. لا بد من طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

الأساس الثالث:

[واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ].

(1) [سورة الأنعام: 57]

يترك ما نهى عنه النبي-صلى الله عليه وسلم-في الأقوال والأفعال، في العبادات والمعاملات، والأخلاق والسلوك. وهذا الترك من قوة الإيمان، وعدم ترك ما نهى عنه النبي-صلى الله عليه وسلم-، هذا دليل ضعف الإيمان.

الأمر الرابع:

[وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ].

وهذا دال على ركن من أركان العبادة، وهو: أن العبادة ليست بالأهواء، ولا بالبدع، ولا بالاجتهاد-نقصد الاجتهاد الذي لم يبنى على دليل صحيح-وإنَّما العبادة مبنية على الاتباع وما جاء به الشرع. وبهذا تتصوَّر شرطي قبول العمل:

1. ألَّا نعبد إلَّا الله.
2. ولا نتابع في عبادتنا إلَّا النبي-صلى الله عليه وسلم-

ننقل كلامًا للعلامة ابن القيم-رحمه الله-يقول فيه: "العمل بغير إخلاص ولا اقتداء، كالمسافر يملأ جرابه رملًا يُثقله ولا ينفعه". فهذا مثل ما ضرب الله مثلًا في سورة النور: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء}[1] هذا وصف الضالين، الذين يعملون أعمالًا يتصوَّرون أنها تنفعهم، ثم يأتون في وقت الحاجة فيجدونها سرابًا.

قال الشيخ:

[وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: 5]].

- {حُنَفَاء} -في الآية -: معناها مائلين من الشرك إلى التوحيد، وهذا ما أمر به جميع الناس: أُمروا أن يعبدوا الله، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. وهم يعبدون الله لا بد أن يكونوا حنفاء.
- {وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}: الدين المستقيم والطريق المستقيم إلى رب العالمين.

ثم ذكر دليل الصيام:

[ودَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة: 183]].

كل الأدلة هنا تدل على أنه لا بد من القيام بهذه العبادة؛ لأن الله أمر بها. ما دليلنا على وجوب الصيام؟

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ}: أوجب الله عليكم الصيام.

أيضًا استشهد بدليل على الحج:

[ودَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: 97]].

نأخذ من لفظة {عَلَى}: الوجوب.

---

(1) [سورة النور: 39]

إلى هنا انتهت المرتبة الأولى.

نأتي المرتبة الثانية: الإيمان.

الإيمان كما تقدَّم من جهة أصحابه أضيق من الإسلام، ومن جهة نفسه أوسع من الإسلام.

ما معنى الإيمان الذي نحتاجه؟ إيمانك لا بد أن يكون مبني على علمك بما ستؤمن به.

والإيمان: هو التصديق الجازم بجميع ما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمِّن للعمل الذي هو الإسلام. معناها الإيمان أوسع من الإسلام من جهة نفسه، من جهة نفس الأعمال، فأنت الآن لما تكون مؤمن تصدِّق بكل ما أمر الله ورسوله بالتصديق به، وهذا التصديق متضمِّن العمل الذي هو الإسلام، فالإيمان سيجمع بين التصديق لجميع الذي أمر الله به، إضافة للأعمال التي هي من أركان الإسلام.

ومر معنا الفرق بين الإسلام والأعمال.

قال: **[الإِيمَانُ وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إِلٰه إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ]**.

وهذا كما هو معروف لفظ الحديث. وهذا الحديث يدل:

- أن شعب الإيمان متفاوتة، فيها أعلى وفيها أدنى.
- وأيضًا يدل على أن الإسلام متداخل مع الإيمان؛ لأن أعلى شعب الإيمان هو قول (لا إله إلا الله) الذي هو أول ركن في الإسلام، وأدناها-أي أقل شعبة من شعب الإيمان-إماطة الأذى عن الطريق. يدل على أن الإيمان داخل فيه الأعمال. على ذلك: إذا كان إماطة الأذى من شعب الإيمان، انظر العكس، لو شخص وضع الأذى في الطريق هذا يدل على نقص الإيمان.

قال: **[وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ]**.

ومعلوم أن الحياء خلق رفيع يبعث على فعل الخير واجتناب القبيح، وهو من أفضل الأخلاق وأعظمها؛ لأنها سبب لاستحيائك من الله فلا تخالف أوامره، ولا تفعل ما نهاك عنه.

فالمستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي، خصوصًا إذا أنت تصوَّرت إطلاع الله عليك.

قال: **[وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: كما في الحديث (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).]**.

هنا لا بد أن يتبيَّن لك أن: لا منافاة بين أركان الإيمان وبين شعب الإيمان؛ لأن المقصود:

- أن الإيمان إذا كان بمعنى الاعتقاد فهو من الأركان الستة؛ لأن كل الأركان الستة عبارة عن اعتقادات.
- أمَّا إذا كنَّا نقصد أن الإيمان يشتمل على الأنواع وأجناسها، هو سيكون بضع وسبعون. حديث الأركان: يراد به الأمور الاعتقادية، الأساسيات. وأما حديث البضع وسبعون: فهو مراد به بيان خصال الخير التي يأتي بها الإيمان.

ما معنى هذه الأركان الستة؟

معلوم ((أن تؤمن بالله وملائكته ...)) كل هذا يقصد به الإيمان الإجمالي، الذي يبنى عليه الإيمان التفصيلي. يعني هذه الأركان الستة المفروض يكون لك فيها إيمانًا إجماليًا، ثم كلَّما تعلَّمت يكون هناك إيمانًا تفصيليًا، فإذا آمنت إيمانًا تفصيليًا، ماذا سيكون الناتج؟ يزيد إيمانك.

باختصار:

ما معنى أن تؤمن بالله؟

أربع أمور. أن تؤمن: بـ

- وجوده.
- ربوبيته.
- ألوهيته.
- وأسمائه وصفاته.

الإيمان بوجوده أمر مسلَّم به، ما في درجات. لكن انظر إلى الإيمان بالباقي (بربوبيته وبألوهيته وبأسمائه وصفاته) تجد الناس فيه مختلفون في درجاتهم.

الأمر الثاني الإيمان بالملائكة:

هناك إيمان إجمالي:

- وهو أن تؤمن أن الله له ملائكة خلقهم-سبحانه وتعالى-.
- وهم عالم غيبي.
- خلقهم الله من نور.
- عابدون لله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.
- وتعلم من ورد ذكرهم ووصفهم في كتاب الله مثل جبريل وميكائيل.

ثم إذا زدت معرفة بأوصافهم، زاد إيمانك.

معناه أنت المطلوب منك:

1. الإيمان بوجودهم وأنهم مخلوقون عابدون لله قائمون بما أمروا به.
2. أن تؤمن بمن علَّمنا اسمه. كل واحد باسمه إيمانًا إجماليًا:

- أن جبريل موكَّل بالوحي.
- وميكائيل موكَّل بالقطر والنبات.
- وإسرافيل بالنفخ الصور.
- وملك الموت موكل بقبض الأرواح.

هؤلاء نعرف أسمائهم، نؤمن بهم، أما البقية فنحن لا نعرف أسماءهم، فهؤلاء نومن بهم إيمانًا إجماليًا. قد يرد في بعض الآثار أن ملك الموت اسمه عزرائيل، والظاهر أن هذا لا يثبت، والصحيح أن اسمه ملك الموت. بعد هذا يمكن أن يأتيك من النصوص ما يعلِّمك عن تفاصيل أوصافهم مثل ما ورد في مسند الإمام أحمد: عن عبد الله ابن مسعود–رضي الله عنه–أنه قال عن النبي– صلى الله عليه وسلم– : ((أنه رأى جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق))[1] هذا الآن وصف دقيق. أنت كلَّما زدت معرفة وعلمًا، كلَّما تعلَّمت عنه. وكلَّما زدت علمًا بهذه المخلوقات وزدت إيمانًا.

3. المطلوب إذًا: نؤمن بما علَّمنا من صفاتهم وهيئاتهم.
4. نتعلَّم عن وظائفهم وأعمالهم، التي دلَّت عليها النصوص. وقد تدخل هذه النقطة في النقطة الثانية، ويكون المطلوب منك:

1. أن تؤمن بوجودهم.
2. أن تؤمن بأسمائهم وأعمالهم.
3. أن تؤمن بأوصافهم.

ويصير ثلاثة نقاط.

الإيمان بالكتب:

الكتب التي أنزلها الله على رسله، يجب عليك أن تكون مؤمنًا بالكتب.

ولا يتم إيمانك إلَّا بأربعة أمور: –

1. الإيمان بأنها مُنزَّلة من عند الله حقًا.
2. الإيمان بما علَّمنا الله–عزَّ وجلَّ–اسمه: كالقرآن والتوراة والإنجيل، وأما ما لا نعلمه فنؤمن به إجمالًا.
3. التصديق بما صح من أخبارها. فأنت ما الصحيح عندك؟ أخبار القرآن هذه مطلقًا صحيحة، وأخبار ما لم يحرَّف وما لم يبدل من أخبار الكتب السابقة، وهذا يحتاج إلى زيادة في العلم، فنحن نحتاج أن نؤمن بأخبار القرآن، وغيره يحتاج مزيد من العلم، فمن الأخبار التي عند اليهود مثلًا الرجم للزاني، فهذا حكم لم يُحرَّف.
4. العمل بأحكام الكتب ما لم تنسخ. هذا معناه أن نتكلَّم عن كتاب الله. بالنسبة لكتابنا وهو القرآن سأعمل بالأحكام ما لم يأتِ فيها نسخ، مثل: مسألة التدرج في تحريم الخمر أو مسألة التدرج في الأمر بالصيام. هذا ماذا تحتاج فيه؟ أن تعمل بالحكم الذي لم ينسخ، والمنسوخ حتى لو تلوته تلاوة تترك العمل به. وأما الكتب السابقة كلها نسخت بالقرآن العظيم. وأنت تعلم أنه لا يجوز التحاكم بالكتب السابقة إلى شيء منها بحال من الأحوال: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}[2] فإن تنازعتم في شيء، لا يحق لكم إن كنتم مؤمنين أن ترجعوا إلى غير كتابكم.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل:

الرسل: هم من بعثهم الله إلى أقوامهم وأنزل عليهم كتابًا، أو لم ينزل عليهم كتابًا ولكن أوحى إليهم بحكم لم يكن في شريعة من قبلهم.

---

(1) رواه أحمد في مسنده (3748)، حسن.

(2) [سورة النساء: 59]

أما الأنبياء: فهم من أمرهم الله أن يدعو إلى شريعة سابقة دون أن ينزل عليهم كتابًا، أو يوحي إليهم بحكم جديد ناسخ أو غير ناسخ.

الفرق بين الرسول والنبي؟

الرسول: هو من بعثه الله إلى قوم رسول، وأنزل عليه كتاب، أو لم ينزل عليه كتاب لكن أوحى إليه بحكم لم يكن في شريعة من قبله.

أما النبي: فهو من أمره الله أن يدعو إلى شريعة سابقة دون أن ينزل عليه كتابًا، أو يوحي إليه بحكم جديد ناسخ أو غير ناسخ.

على ذلك: كل نبي رسول وليس العكس. وقيل: هما مترادفان: أي أن النبي رسول، والرسول نبي. والظاهر أن الأول هو الأصح.

راجعي هذا الكلام للشيخ عبد الرزاق عفيفي في مذكرة التوحيد. الشيخ هو من هيئة كبار العلماء في المملكة، وهو مصري الجنسية، وهو مفخرة للعلم وأهله. إذا قرأت له كلامه عن التوحيد ترى كيف يبيّن الله لعباده الحق، وكيف يجري على أيديهم بيانه.

الإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

1. أن رسالاتهم حق من عند الله تعالى، وأنهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم.
2. الإيمان بمن علمنا اسمه منهم.
3. تصديق ما صحَّ عنهم من أخبار.
4. العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد-صلى الله عليه وسلم-.

الركن الخامس: اليوم الآخر.

المراد منه: يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الخلق للحساب والجزاء. وإيمانك باليوم الأخر يتضمن:

1. إيمانك بالبعث.
2. إيمانك بالحساب والجزاء.
3. إيمانك بالجنة والنار.

والشيخ محمد عبد الوهاب-رحمه الله-في آخر هذه الرسالة تكلَّم عن البعث بانفراد، أي أفرد الكلام حول البعث بكلام أخير في آخر الرسالة، بعدما تكلَّم عن موت النبي-صلى الله عليه وسلم-. والدليل على موته-صلَّى الله عليه وسلَّم-قوله تعالى :{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}[1] والناس إذا ماتوا يُبعثون، والدليل قوله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ} في هذا الموطن أعاد الشيخ مرة أخرى الكلام حول البعث، وسيتبيَّن لنا لماذا أعاده في آخر الرسالة. هنا سنؤجل الكلام عن البعث ووصله بالكلام عن النبي-صلى الله عليه وسلم-.

الظاهر أن مسألة البعث بعد الموت كان مما اشتهر في زمانه إنكارها، فلما تسمع هذا الكلام تتصوّر أن المسلمين وصلوا إلى حال أنهم ينكرون اليوم الآخر، وينكرون الحساب، وينكرون البعث، تتصوَّر إلى أي درجة تردَّى الدين في ذاك الزمن، ثم أعاد الله نشر التوحيد، ثم إذا تأمَّلت أكثر فوجدت أن الله أجرى على يد شخص مرَّة أخرى إعادة دعوة التوحيد، والآن أنت لا يهمك الشخص من أي مكان، هذا الأمر لا يكدِّر خاطرك ولا تفكِّر فيه، هذا التفكير يكاد يشبه تفكير اليهود لما رفضوا الحق لأنه أتى نبي من العرب، لا تفكِّر من أتى به، المهم أن الله أجرى على يد شخص إعادة نشر التوحيد مرَّة أخرى، وهذه مما يُشكر الله عليه.

(1) [سورة الزمر:30 -31]

وإن كان في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد من بدأ بتحريك دعوة التوحيد وفي اليمن أيضًا، لكن الله كتب نشره للشيخ، وهذا الأمر إلى الله، هو يخلق ما يشاء ويختار. المهم الذي تفكِّر فيه أنه كيف وصلت الأمَّة إلى هذا الحد؟ أنهم وصلوا لحد حال إنكار البعث والجزاء والحساب، ثم أعاد الله من جديد الدين وانتشر الحق وتعلَّم الناس، هذا يعطيك يقين أنه مهما كان حال المجتمع، فالله-عزَّ وجلَّ-قادر على أن يبعث من جديد فيهم روح التوحيد. أنت الآن تمنَّى على الله وارغب أن تكون ممن يكشف الله بهم الغَّمة: غمَّة الشرك وغمَّة الجهل به. وتصوَّر كيف أجرى الله-عزَّ وجلَّ-على يد شخص مثل هذا في منطقة وفي زمن ليس فيه الاتصالات القوية. فأنت الآن تصوَّر قوة الاتصالات مع سهولة الانتقالات-اتصالات سهلة وانتقالات سهلة-وتعلُّمنا سهل وتعليم الناس سهل، فهذا الذي يكون في ذهنك أن تتعلَّم التوحيد وأن تنشره، ولا تتصوَّر أن قلمك يخط التوحيد وأنت صادق ولا يبقى بعدك شاهد! لا تتصوَّر هذا، بل خط ما استطعت عن التوحيد. اكتب، ابحث عن آيات التوحيد واجمعها كلها في دفتر خاص، واكتب شروحها من كتب أهل العلم، ثم يبقى بعدك علم غزير.

كما أن رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عبارة عن رسائل. الأصول الثلاثة عبارة عن رسالة أرسلها لأحد، مثل أنَّ كتاب التوحيد في كلام بعض من ينقل سيرة الشيخ أن كتاب التوحيد عبارة عن مذكرات كان يكتبها يدخل بها الدروس. تعرفون كيف لمَّا نعبِّر بـ (دفتر التحضير)، يأتي الشيخ يكتب عنوان الباب، ثم يكتب الأدلة، ثم يكتب مسائل: تفسير آية كذا، تقرير كذا، ثم يناقش طلابه في هذا. فتخيَّلي دفتر تحضير يكون سبب لهداية أمم، وزيادة إيمان ناس. لا نقول إلَّا إن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء. لما ترى هذا ازدد أنت حماسًا أن تكتب مخلصًا راجيًا، اكتب وكل تفكيرك أن يبقى بعدك نشرًا للتوحيد. ألم تسمع إلى ما خوطب به مالك لما قيل له كثرت الموَطَّآت؟ قال: "ما كان لله يبقى وما كان لغيره ذهب" فلم يبق إلَّا موطَّأ مالك، لم يبق مذكورًا مرفوعًا له قيمة إلَّا موطَّأ مالك. اكتب حرِّر لا تمل، يبقى بعدك، ينتفع به غيرك، يبارك الله فيه. وأنا أقول لكم هذا وأشتكي من نفسي من قلَّة العناية بالكتابة، لكن أرجو الله أن يفتح عليَّ وعليكم، ويسيِّل أقلامنا. نسأله-سبحانه -أن يعلِّمنا الحق، ويثبِّت قلوبنا عليه، ويطلق ألسنتنا به، ويسيِّل أقلامنا به، اللهم آمين. على كل حال، قلنا هذا الكلام استطرادًا لما أتى الكلام عن الإيمان باليوم الآخر، وقلنا إنه يتضمَّن أربعة أمور. وتفصيلها سيتكلَّم عنه الشيخ. ننظر الموطن ونتكلَّم عنه.

الإيمان بالقدر خيره وشره:

له أربع مراتب كما هو معروف، لا يتم إلَّا بها، سأذكرها مختصرة:

1. الإيمان بعلم الله تعالى، وأنه عالم بما كان، وما يكون، وكيف يكون.
2. الإيمان بالكتابة، وأن الله كتب ما علم أنه كائن إلى يوم القيامة.
3. الإيمان بأنه لا يحصل في هذا الكون إلَّا ما شاء الله.
4. الإيمان بأن الله-جلَّ وعلا-خلق الخلق وأعمالهم وأفعالهم.

ثم استدل على هذه الأركان الستة وبدأ بآية سورة البقرة التي فيها إثبات:

[وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}[البقرة: 177]].

دليل القدر، آية سورة القمر: [ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49]].

هذه الأدلَّة معلومة.

ثم نأتي إلى الإحسان.

قال: [الإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما في الحديث: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)].

إذا أتينا إلى كلمة الإحسان سنجد أنه نوعان:

1. إحسان في عبادة الخالق. وهو المراد هنا.
2. إحسان في حقوق الخلق، وهو نوعان:

- النوع الأول: تقوم بحقوقهم الواجبة على أكمل وجه، مثل: بر الوالدين، وصلة الأرحام، الإنصاف في جميع المعاملات. وفي هذا النوع يدخل الإحسان للبهائم، وحتى الإحسان في قتلها، كما ورد في الحديث ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة))[1].
- النوع الثاني: الإحسان المستحب وهو ما زاد على الواجب معناه. هذا الإحسان في أصل معناه.

والمراد هنا الإحسان في عبادة الخالق. وهو ركن واحد، ما هو الركن؟ أن تعبد الله: أي تقوم بعبادة لله سواء كان عبادة بدنية أو عبادة مالية. لحظة قيامك بهذه العبادات كأنك تراه: كأنك ترى معبودك وتشاهده. فيكون الناتج:

- أن تخلص له.
- ولا يلتفت قلبك لغيره.
- أن يتيقَّن العبد بما ترتَّب على هذا العمل من جزاء، وأنت تكون موقن أن الله هو المقصود: أي تجمع قلبك على أن الله هو المقصود كأنك تراه. فلما توقن بهذا، يقع منك الإتقان في العبادة، وأهم شيء في الإتقان الإخلاص.
- ويقع أيضًا اليقين بأن الله مجازيك، واليقين بأن الله لن يضيِّعك، فتزداد رغبة في الله وفيما عنده.

هذه الدرجة الأولى من درجات الإحسان وهي الدرجة العظمى وهي (درجة المراقبة). يليها درجة أخرى، قوله: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" إذا لم تعبده وكأنك تراه وتشاهده فاعبده على مرأى منه-سبحانه وتعالى-، اعبده وأنت متيقِّن أنه يراك، ويسمع ما تقول، وهو ما يسمونه

(مرتبة المشاهدة). ومرتبة الإحسان أصحابها هم الخُلَّص من عباد الله الصالحين، وأنت مر معك أن من تحقَّق الإحسان فقد تحقَّق الإسلام والإيمان.

قال: [وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل: 128]].

(1) رواه مسلم (كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، 1955)

دلَّت الآية على فضل المحسنين الذين اتَّقوا الله-عزَّ وجلَّ-. والفضل هو معيَّة الله لهم، معيَّة خاصة، معيَّة نصر وتأييد وتسديد، وهذا زيادة على المعيَّة العامة. ونحن نرجوه-سبحانه وتعالى-أن يرزقنا أن نكون محسنين، نتحرَّك وقلوبنا ممتلئة مشاهدة له، فلا تلتفت يمنة ولا يسرة. واعلم أن من أعظم ما تلتفت إليه القلوب الهوى، فكثير من الأحيان يكون تحرُّكك وممارساتك في كثير من عباداتك ما هو إلَّا طلب للهوى. وهذا الأمر ممكن أن يكون عجيب-أن تعبد من أجل هواك-لكنه موجود، حتى أن هناك كلام لابن الجوزي، نقله صاحب الفروع على قوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}[1] "كيف لا يوصف بالاستدراج من يعمل لثبوت الجاه بين الخلق، ويمضي عمره في تربية رياسته، ليقال هذا فلان " انتهى كلام ابن الجوزي الذي نقله صاحب الفروع. ربَّما عاش العبد زمن من حياته كل تفكيره أن يشار له أن هذا فلان، فيكون عَبَدَ الله، وتعلَّم العلم، واعتنى بنشره، لكن هذا كله من باب الاستدراج له. تصوَّر هذا الأمر الخطير، أن تعيش في فلك الدعوة والدين وأنت مستدرج! أمر مفزع! لذلك ما لنا إلَّا التوسل بالله، ما لنا إلَّا هذا الباب. وإلَّا خابت مساعي من كان عن نفسه راضٍ. لا يكون همَّك إرضاء نفسك، لا تشاهدها، بل مقت النفس عبادة.

الدليل الثاني:

[وقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: 217 . 220]].

هذه الآيات فيها دليل على الإحسان. الله يأمر نبيَّه أن يتوكَّل على ربِّه في جميع الأمور، لماذا؟ لأنه عزيز قوي لا يغلب، ولأنه رحيم. ثم وصف نفسه: **[الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ]** أي تقوم وحدك إلى الصلاة، أي التهجد. **[الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ]** أي: يراك ويرى تقلُّبك مع المصلين. والمقصود بالتقلُّب هنا هو: السجود والركوع والقيام. فهو معك سواء صليت لوحدك أو صليت مع الجماعة. ثم قال: **[إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ]**. هذا فيه تقرير للأمر بالتوكُّل لأنه سميع لكل صوت، عليم بكل حركة وسكون. ولذلك لابد أن تتوكَّل عليه وتفوِّض أمرك إليه. خاب من ترك بابه وطرق باب غيره.

أتت الآية التي بعدها:

[وقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس: 61]].

أيضًا هذه الآية فيها دليل على الإحسان، والخطاب للرسول-صلى الله عليه وسلم-:

- {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ}: في عمل من الأعمال.
- وما تتلوا من كتاب: {وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ}: أنت أو أمتك إلَّا الله كان مشاهد لك مراقب لأعمالك.
- {إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}: إذا تدخلون في هذا العمل.

(1) [سورة القلم: 44]

كلها أدلة أن الله معنا، يشاهدنا ويسمعنا. فهي أدلة تدل على وجوب الإحسان، أي يجب عليك أن تحسن ما دُمت تعلم أن الله معك يشاهدك ويسمعك.

يأتي بعد هذا الحديث استدلاله بحديث عمر المشهور الذي فيه مراتب الدين. ناقشنا تفاصيله فيما مضى. بقي الأصل الثالث: معرفة نبيِّكم -صلى الله عليه وسلم-، وخاتمة الرسالة: وهو الكلام عن البعث والجزاء، والكلام عن رؤوس الشياطين.

أسأله أن ينفعنا بما مضى معنا من كلام، وأسأله أن يجعله مباركًا نافعًا.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نبدأ لقاءنا اليوم بهذا الأصل من الأصول الثلاثة، وهذا الأصل هو:

[مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ].

قال الشيخ:

[وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النبوة. نُبِّئَ بـ {اقْرَأْ} [العلق: 1]، وَأُرْسِلَ بـ{الْمُدَّثِّرْ} [المدّثر: 1]، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وهَاجَرَ إلى المدينة. بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالدَّعْوةِ إِلَى التَّوْحِيدِ].

نبتدئ أولًا بالكلام حول نسب النبيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. والشيخ-الشيخ محمد بن عبد الوهاب-ذكر ما اتُّفق على وجوب معرفته، فالعلماء اتَّفقوا أن معرفتك للنبيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-معرفة اسمه ونسبه، أن تعرف أنه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، هذا محل اتِّفاق. وذكر بعضهم والذي هو الآن موطن الاختلاف: أنه مطلوب منَّا أن نحفظ نسبه إلى عدنان: مُحَمَّد ابن عبد الله-صلوات الله وسلامه عليه-ابن عبد المطلب ابن هشام ابن كلاب ابن مرة ابن كعب ابن لؤي ابن غالب ابن فهر ابن مالك ابن النضر ابن كنانة ابن خُزيمة ابن مدركة ابن إلياس ابن مُضر ابن نزار ابن معد ابن عدنان.

هذا محل خلاف: أنه يُحفظ أو ما يُحفظ، لكن الشباب اليوم-طلاب العلم-يبذلون جهودهم أن يحفظوا نسب النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إلى عدنان.

والمعرفة بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معرفتان:

المعرفة الأولى: وسيلة وتمهيد.

المعرفة الثانية: مطلب وغاية، مطلبٌ شرعيٌ وغاية.

فمعرفة الإنسان المسلم مُحَمَّدًا-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وأنه محمد ابن عبد الله ابن عبد المطلب، وأنه من العرب من ذرية إسماعيل، وأنه ولِد بمكة، وهاجر إلى المدينة، فهذه المعرفة معرفة تمهيده للمعرفة التي لا بد منها، وهي التي من الإيمان، وهي كون المؤمن يعلم أنه: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُم}[1]. فتعلم أنه رسول الله، وأن هذا نسبه، وأنه عبدٌ لله، اصطفاه الله من أشرف قبائل العرب. المطلوب أن تعلم أنه كما أخبر-سبحانه وتعالى-في سورة التوبة: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم

(1) [سورة الأحزاب: 40]

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}[1] يعني مطلوب منك معرفته بأوصافه التي جاءت في القرآن، ومعرفة أنه خاتم النبيين ولا نبي بعده، وأنه مبعوثٌ للثقلين الجن والإنس؛ فهذه هي المعرفة النافعة، ويأتي بعد هذه المعرفة التصديق والإذعان له-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بمتابعته، وترك متابعة من سواه. تتابعه وتترك متابعة من سواه، وهذا هو مقصد المعرفة. مقصد المعرفة أن تصل إلى أن تتابعه، وتترك متابعة من سواه.

معرفتك بنسبه مقصدها: أن النبيَّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بُعث في أكرم العرب نسبًا؛ من أجل ذلك قال الشيخ في تعريفه بالنبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بعدما ذكر نسبه-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قال لك: **[وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ]**.كلام الشيخ هذا مُنتزعٌ من الحديث الصحيح الذي أخرجه مُسلم أن الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قال: ((إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريش من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم))[2]. أنت لابد أن تعلم أن الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بُعث في أكرم العرب نسبًا، وقد شهد له بهذا الأعداء في صحيح البُخاري في كتاب بدأ الوحي: ((لما هرقل سأل أبا سُفيان: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب)). بذلك استشهد هرقل على صدقه، على صدق الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وقال: ((وكذلك الرُسل تُبعث في نسب قومها))[3]. يعني تكون أكرم القوم نسبًا.

[وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ] وهو هشام ابن عبد مناف.

[وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ]

ومعلوم أن العرب:

عربٌ عاربة: وهم القحطانيون.

وعرب مُستعربة: وهم العدنانيون.

على كل حال، هذه التفاصيل كلها تعرفها من أجل أن تبقى مُعتزًا بنبيك، وتعلم أنه من سُلالة الأنبياء، وتعلم نسبه إلى إبراهيم-عليه السلام-والعرب من ذُرية إسماعيل، فيكون النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-من أولاد إسماعيل-عليه الصلاة والسلام-، والمقصود أنه ليس من أولاد إسحاق. أنبياء بني إسرائيل كلهم من يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم، يعني: من ذُرية إسحاق، هؤلاء أنبياء اليهود، لكن النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-من ذُرية إسماعيل، وكما هو معلوم أن إسماعيل ولد لإبراهيم-عليه السلام-من أمته هاجر على كِبر

(1) [سورة التوبة: 128]

(2) رواه مسلم (كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، 2276)

(3) رواه البخاري (بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، 7)

منه، لمَّا قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}[1] ومعلوم أن إسماعيل هو الذي أُمر إبراهيم-عليه السلام-بذبحه، وله من العمر ثلاثٌ وستون سنة.

هذا الأمر الثاني: الذي هو معرفة عمره ومكان ولادته. وقد ورد عن عائشة-رضي الله عنها-أنها قالت: ((توفي النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ابن ثلاث وستين))[2]

وأمَّا مولده-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

ففي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل. ولا بد أن تتصوَّري أن هذه المعلومات التاريخية حولها كثير من الخلاف والنقاش وبالذات مسألة الولادة، يعني: متى ولد. لكن إجمالًا الذي ثبت في النصوص هو الذي يُقبل، فحديث عائشة الذي أخرجه البُخاري ومُسلم: ((أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي وهو ابن ثلاث وستين))، هذا يجعلك تجزمين بهذا الأمر.

نأتي إلى المولد فيه خلاف ما فيه نص، يعني راجعي مثلًا البداية والنهاية، تجدين كلام أهل العلم حول متى ولد، لكن أنه توفي عن ثلاث وستون، نعم هذا من مقطوع، كما ورد في حديث عائشة في البُخاري وفي مُسلم. فأنتِ تجدين أن الشيخ يذكر المقطوعات-يُذكر في رسالته الأمر المقطوع به الذي له الدليل الصريح -منها: ((أربعون قبل النبوة))، وهذا ورد في حديث أنس الذي أخرجه البخاري وفيه: ((أُنزّل عليه وهو ابن أربعين))[3]. فإذا علمت أنه قضى أربعون عامًا قبل النبوة، بقي كم؟ ثلاث وعشرون سنة نبيًا ورسولًا، فهذا يدل دلالة قاطعة على أن مُدَّة النبوة والرسالة كم؟ ثلاث وعشرين سنة، وهذا أيضًا في حديث أنس، ورد: ((أُنزّل عليه القرآن وهو ابن أربعين، فلبث في مكة عشر سنين، يُنزل عليه القرآن، وبالمدينة عشر سنين))[4] فظاهر كلام أنس الآن أن مدة النبوة والرسالة عشرون سنة، يعني: حديث أنس يدل على أن مُدة النبوة والرسالة عشرين؛ لأنه قال: ((أُنزّل عليه القرآن وهو ابن أربعين، فلبث في مكة عشر سنين، يُنزل عليه القرآن، وبالمدينة عشر سنين))، فدل هذا على كلام أنس-رضي الله عنه-أنه كم؟ عشرين سنة. وحديث عائشة: ((أنه مات عن ثلاث وستين))، دل على ماذا؟ على أنه ليست عشرين، إنما ثلاث وعشرين، فكأنه حاصل تعارض.

طيب من أين لنا أن نجزم أنها ثلاث وعشرون؟!

أنه ورد عن أنس نفسه في الصحيحين: ((أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وله ثلاث وستون)) فتبيَّن بهذا أنها ثلاث وعشرون. وهذا معلوم في لُغة العرب؛ أن الكلام الإجمالي غير الكلام التفصيلي، فإذا أتى أحد يتكلَّم بكلام إجمالي يحذف الكسور، فيعني: (عشر) يقصد بها كل ما هو أقل من العشرين، أو كل ما هو أقل من الخمس عشر. فإذا تعارض الأمر بين أن يكون عشر أو ثلاث عشر، وورد هنا دليل على أنها ثلاث عشر، تعلم أن الصحيح ما ورد عن عائشة-رضي الله عنها-ما ورد عن أنس بنفسه أنه توفي-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عن ثلاث وستون عامًا، فيُعلم أنه قضى ثلاث وعشرون عامًا في الدعوة.

الآن الأمر الثالث الذي تحتاج أن تعرفه: معرفة حياته النبوية.

---

(1) [سورة إبراهيم: 39]

(2) أخرجه مسلم (2348) باختلاف يسير، والبخاري في ((التاريخ الأوسط)) (88) واللفظ له

(3) أخرجه البخاري (3547) واللفظ له، ومسلم (2347)

(4) رواه أحمد في مسنده، صحيح.

فقال: [نُبِّئَ بـ {اقْرَأْ} [العلق: 1]، وَأُرْسِلَ بـ {الْمُدَّثِّرْ} [المدّثر: 1]

عرفنا أنه لثلاث وعشرين كان نبيًا رسولًا.

نُبِّئَ بـ {اقْرَأْ} يعني: خُبِّر؛ لأن النبوَّة مأخوذة من النبأ، وهو: الخبر.

وَأُرْسِلَ بـ {الْمُدَّثِّرْ} يعني: بُعث؛ لأن معنى الإرسال: البعث والتوجيه.

[نُبِّئَ بـ {اقْرَأْ}، وَأُرْسِلَ بـ {الْمُدَّثِّرْ}] بـ {اقْرَأْ}، معلوم، الذي هو: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} وهذا نزل عليه يوم الاثنين في رمضان، وهو في غار حراء.

وَأُرْسِلَ بـ {الْمُدَّثِّرْ}، وَأُرْسِلَ يعني: بصدر السورة.

وقول المؤلف: [نُبِّئَ بـ {اقْرَأْ}، وَأُرْسِلَ بـ {الْمُدَّثِّرْ}] يُعيدنا مرّة أُخرى للكلام حول الفرق بين الرسول والنبيّ، وقد ناقشنا هذا سابقًا، فعطفه هنا الظاهر يقتضي المغايرة.

قال:

[وَبَلَدُهُ مَكَّةُ] يعني: التي ولد فيها ونشأ، إلَّا المدة التي أقام فيها عند مُرضعته حليمة السعدية في بادية بني سعد، ثم رجع بعدها إلى حضانة جده عبد المطلب، ثم عمه أبي طالب. كما هو معلوم أن أمه آمنة بنت وهب، ماتت وعمره ست سنين. بقي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مكة بعد أن نُبئ وأرسل ثلاث عشر سنة، بعد أن أوحي إليه، ثم هَاجَرَ إلى المدِينة.

قال:

[وهِجرتُهُ إِلَى المَدِينةِ]: يُقصد بكلمة المدينة: مدينة الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأنه الاسم الغالب عليها. يعني المدينة: اسم غالب لمدينة الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دون غيرها من المدن؛ لأنها بالنسبة للمدن كالنجم للثُريَّا. إذا أردت لذلك مثيلًا انظر حين نقول: ابن عباس -رضي الله عنه-. أبناؤه ليسوا عبد الله، يعني أقصد كل أبناء العباس، الآن له عدَّة أبناء صحيح؟ لكن لما نقول لك: ابن عباس. أنت مباشرةً لا يأتي في ذهنك إلَّا عبد الله ابن عباس؛ فهذا من باب تغليب، فيكون كالنجم للثرَّيا.

على كل حال ورد في صحيح البخاري أن النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهْلِي))، يعني: ظنّي، ((فَذَهَبَ وَهْلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ)) كلها منطقتين قريبتين من بعض. اليمامة: يعني التي هي نجد الآن، ((فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِب))[1] فمن هنا جاء كلمة (المدينة).

قال:

[بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالدَّعْوة إِلَى التَّوْحِيدِ].

هذا الأمر الرابع: مِمَّا يتعلَّق بمعرفة النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو معرفة ما بُعث به.

وهذا أعظمها وأعلاها، فالنبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعثه الله تعالى يُنذر عن الشرك، ويدعو إلى توحيده. وكما هو معلوم الإنذار بمعنى: التحذير. بعثه الله بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد. فدعوته إلى التوحيد، ونذارته عن الشرك -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذه أصل دعوته، ثم ترتَّب عليها ما بعدها. [بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالدَّعْوة إِلَى التَّوْحِيدِ]. اتَّفقنا أنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(1) رواه البخاري (كتاب المناقب، باب علامات النبوة، 3622)

وَسَلَّمَ-كان أصل دعوته وبداية دعوته إلى التوحيد؛ لكن لا يعني أنها قاصرة على التوحيد، لكن الركيزة هي التوحيد. وتوحيد الأُلوهية هو محل المعركة، أمَّا توحيد الربوبية فقد كان الناس في زمن النبيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-مُعترفون به، فتوحيد الربوبية يستوي فيه الكافر والمؤمن؛ ولذلك مما هو مُسلَّم به عندهم: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}[1] أو مثل قوله تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ}[2] هم ما أنكروا، ما قالوا: إله مع الله.

هذا يدل على أن من أُرسل إليهم النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-كان توحيدهم في الربوبية فيه سلامة ظاهرة.

لكن تعال انظر إلى العجب الآن! كفار قُريش لا يوجد فيهم من يدَّعي بأن أحدًا شارك الله في خلق السماوات والأرض، وفي تدبير الأمر من السماء إلى الأرض، وفي التصرُّف في هذا الكون، لا يوجد منهم من ادَّعى ذلك. وترى ما حصل في الآونة الأخيرة من المتصوِّفة-حاربهم الله-هم وأمثالهم من الروافض، أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يُزيلهم إزالةً فيها رحمة لهذه الأمة. نشتكي إلى الله تسلُّطهم على أهل الإسلام، نسأل الله-سبحانه وتعالى-ألَّا يبتلينا بنكبةٍ؛ بسبب ضعف عنايتنا بديننا، وهذه النكبة تكون على أيديهم. نعوذ بالله من سخطه ومن تسليط مثل هؤلاء إن كان من المتصوِّفة أو من وجههم الآخر ألا وهم الروافض، فترى اليوم هؤلاء المشركين بالله، مشايخ الطرق ماذا يعتقدون في مشايخ طرقهم؟ يعتقدون أن الشيخ-شيخ الطريقة-إذا كان حيًا يكون مشغول بالخدمة-وكلمة الخدمة عندهم المقصود منها العبادة-فإذا مات تفرَّغ ليتصرَّف في هذا الكون لأتباعه، ويُصبح هو المسئول عن أرزاقهم وآجالهم وتدبير شؤونهم! وهذا الكلام لم يتجرَّأ أهل الكفر حتى على قوله! فأنت تجد أننا نعيش مع هؤلاء عظيم ابتلاء، فيسبُّون الرب بما يقولون، والمشكلة أنهم يُظهرون حبهم للدين فيغتر بهم من يغتر! وإذا علمت أنهم من أعظم البلاء على أهل الدعوة؛ اشتد عليك الأمر، وإذا رأيت كيف أن الشيطان ينفخ في أرواحهم ويُزكِّي ذكرهم عند أهلهم وعند خاصتهم تصوَّرت عظيم البلوى وزادت عليك المسؤولية.

أمَّا إذا فتحت كتبهم وقرأت ما يقولون لم يهنأ لك عيش، كيف أنهم ينشرون مثل هذا بين خاصة أهلهم-وخاصة يعني المجتمعين عليهم-وتراهم ينشروا كتب ابن عربي التي منها فصوص الحكم، وكتب ابن فارض، وابن سبعين، وابن عجيبة، تجد في كتبهم الكفر البواح، وتراهم كيف أنهم أنشؤوا فكرة (وحدة الوجود)، (نفي الاثنينية) على حد تعبيرهم. يقولون: أن الكون شيء واحد. يقول الهالك ابن عربي: الرب عبدٌ، والعبد ربٌ، يا ليت شعري من المكلفِ، إن قلت عبدٌ فذاك حقٌ، وإن قلت ربٌ فأنَّى يُكلفُ.

فإذا علمت حالهم من مُحاربتهم للتوحيد، وفهمت التوحيد الذي يدعون إليه-لأنه انتبه ترى هم يدعون إلى التوحيد، هم ينفون الاثنينية، يعني: أنه ما في شيء ثنائي في الكون، كل الكون شيء واحد. فإذا علمت أنهم يدعون إلى الوحدة، ويقولون عنها: التوحيد-أرّقك نشر التوحيد، وعلمت لماذا يُشوِّهون سمعة العلماء والصالحين من أهل التوحيد، فإنَّا وجدنا في قلوبهم من بغض أئمة التوحيد ما لا يُتصوَّر، حتى أنهم لا يكرهون أهل الكفر كما يكرهون من يدعون إلى التوحيد! ويورِّثون هذه الكراهية لأهلهم وخاصتهم، وأنا أقصد بأهلهم يعني: الناس المجتمعين عليهم، ويا حسرتاه كيف ينتشر للشرك منابر في عالم الإسلام وما يتحرَّك أهل التوحيد حرارةً وحرقةً.

على كل حال، ما نرجوه من الله أن يجعلنا ممن يدعو إلى توحيده، وينشره بين الناس، ويكون سببًا لكشف الغمَّة عن أمة الإسلام. فإنك إذا تصوَّرت ما بالأمة من الغمَّة؛ تصوَّرت أنه لن يُصلحها إلَّا توحيد الله. وقد رأينا من النداءات والدعاوى إلى إصلاح حال

---

(1) [سورة لقمان: 25]

(2) [سورة النمل: 62]

الأمَّة من صُلَّاح طيبين مُباركين لكن يجهلون التوحيد. ما نُشكك فيهم ولا نُشكك في نيَّاتهم في الإصلاح؛ لكن نقول: أخطأتم الطريق، ترى الأمة تحتاج إلى أن تنتفض من داخلها للتوحيد، تحتاج المسألة إلى إعادة تخطيط في طرح كل شيء. يعني إلى درجة أنه يأتي موقف مع أحد ويكون من ديار أهل الإسلام، وممن يظهر عليه الصلاح، وممن يُحب الدين، فيأتي إلى آية: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ}[1] يقول: كأني أول مرة أسمعها ما أعرفها، وهو يقرأ كتاب الله، يعني: هو لا يُقصد أنه لا يعرفها يعني أنه ما قرأها، بل يقصد أنه ما عاشها في حياته، لماذا مثل هذا؟ إلَّا لأن من يدعو إلى الصلاح يتكلَّم في كل شيء إلَّا في حق الله، وتراهم يعلمون عن تفاصيل الدين-أنا لا أقول عن تفاصيل الدنيا عن تفاصيل الدين-من مسائل الخلاف في الصراط، وهل يُمر عليه أولًا أو الحساب أولًا؟ والميزان وما يعتقدون فيه؟ يعرفون هذه الأشياء، وهذا أمر مهم ما نُسقِّه الكلام فيه لا تفهموا خطأ، بل هذا الكلام مهم ولابد أن نتعلَّم ماذا نعتقد في اليوم الآخر، وسيأتي في نفس هذه الرسالة الكلام عنه؛ لكن أنا أقصد كيف يُبنى هذا على فراغ؟ كيف تطلب من الناس أن يكونوا أتقياء وهم عن ربهم لا يعلمون؟ وهم بربهم يُشركون؟ {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُون}[2]

وأنا أذكر أن هذه الآية في عام 1411هـ-أخذت مني منزلًا عجيبًا حتى أنها أرّقتني، فكنت كل من ألقى ممن أظن فيه خيرًا أسأله ما معنى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُون} ما معناها؟ لم أكن أهتدي بعد للكتب ولا لمنهج السلف المبارك، فلم أجد ما يُشفيني ويشفي غليلي في فهمها، كيف يجتمع الإيمان والشرك كيف؟ وكيف يكون أكثرهم؟ وكيف ما تخافون أن تكونوا من هؤلاء؟ كل هذا كان يؤرِّق؛ لكن بمنِّه وحده، وكرمه وحده، نجانا وعلَّمنا. نسأله-سبحانه وتعالى-كما منَّ علينا هذه المنَّة العظيمة ألا وهي العلم عنه، والعلم بحقِّه-سبحانه وتعالى-أن نكون ممن اتقاه حق التقوى، اللهم آمين.

على كل حال، التوحيد همٌّ يؤرِّق-وأرجو من الله ألَّا أكون سببًا في إزعاج نفوسِكم-خاصة وأن القوم لا بد من نقل هذا الهم إليهم؛ لأنك إذا خاطبت من يدعو إلى الله؛ تأمَّلت فيه أن يُشرح صدره لأهم ما يدعو إليه. أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يجعل حبَّنا للتوحيد ولنشره شافعًا لنا عنده، وأن يكون سببًا لكفارة عظيم ذنوبنا، فنحن نتقرب إليه بحب التوحيد، وحب نشره؛ وإن كنَّا مُقصرين في تحقيقه، لكن عسى أن يجعل الله هذا سببًا في تكفير ذنوبنا، اللهم آمين.

نعود مرَّة أُخرى إلى مسألة أن الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يدعو إلى التوحيد.

يقول الشيخ: **[بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ]**، ثم استشهد بأوائل سورة المدثر، قال: **[وَمَعْنَى: {قُمْ فَأَنذِرْ}: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ]** سنرى ما معنى هذه الآيات، وكيف علَّق عليها الشيخ ليُبيِّن لك ماذا نعتقد في بعثته-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

(1) [سورة الأنعام: 17]

(2) [سورة يوسف: 106].

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} هذه أول آية أُرسل بها النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقد ثبت عن جابر ابن عبد الله أنه سمع الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يُحدث عن فترة وحيه فقال في حديثه: ((فبينا أنا أمشي إذا سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري قِبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء قاعدٌ على كُرسيٍ بين السماء والأرض، فجئثتُ منه)) بمعنى: فزعت، ((حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} إلى {...فَاهْجُر} فقال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمى الوحي وتتابع))[1]

وهذه الآيات التي فسَّرها الشيخ أراد أن يستشهد بها على أن النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أُرسل يُنذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد.

وأمَّا تكبير الرب: يعني تعظيمه بالتوحيد. فأنت مطلوب منك أن تُعظِّمه بالتوحيد، وتصفه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يقول الكُفَّار، إذاً معنى ذلك: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}، يعني: عظِّم. وهذا مقصد لابد من ثبوته في قلبك وفي سلوكك، فالمطلوب منك تعظيمه بالتوحيد، يعني: تعظيم الله-عزَّ وجلَّ-يكون بتوحيده.

ثم معنى تطهير الثياب:

تطهير الأعمال عن الشرك. وهذا أحد تفاسير الآية.

والقول الثاني: إن المراد بها الثياب الملبوسة. وتطهير الثياب الملبوسة مبني على الأمر بالصلاة.

ومعلوم أن هذه الآية نزلت في أول البعثة، فتكون الصلاة لم يُؤمر بها بعد، لكن لا بأس كما ذكر ابن كثير: وقد تشمل جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه، على ماذا؟ على القلب. قلبك هو ثوبك، لماذا؟ لأن ثوبك هو الذي يظهر منك للناس، وقلبك هو الذي يظهر منك أثناء التصرُّفات، من أجل ذلك الآن من الاحتياجات التي نحتاجها لنشر الدين؛ نشر العناية بالعربية.

ثم الأمر بهجر الرُّجز والمعنى: أن الرُّجْزَ بضم الراء: الأَصْنَامُ والأوثان، **[وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا والإعراض عنها وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا]** كما قال إبراهيم -عليه السلام-في مريم: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}[2]

[أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ].

فتصوَّر هذه المدَّة قبل فرض الصلاة تُنبِّئك بمكانة التوحيد. لم تفرض الصلاة التي هي عماد الدين وبقية الشرائع لم تفرض إلا بعد إرساء دعائم التوحيد وبُنيان العقيدة. وهذا الذي يجب أن يتصوره كل من يدعو إلى الله؛ لذلك قال النبيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لمعاذ لمَّا بعثه إلى اليمن: ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله))، وفي رواية: ((إلى أن يوحِّدوا الله))[3]

(1) رواه البخاري (كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (والرجز فاهجر) "، 4926)

(2) [سورة مريم: 48].

(3) رواه البخاري (كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، 7372)

[وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ].

لماذا ذكر المصنف مسألة الإسراء والمعراج؟

لأنه من الأمور التي تثبت بطريقة الشرع، وليس للعقل فيها مدخل. والجمهور من المحدثين والفقهاء أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد-النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وروحه. وقريش أكبرت هذا وأنكرته. ولماذا أنكرته قريش؟ لأن النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أخبرهم أنه أُسري به بجسده؛ لأنه لو كان بروحه فقط-يعني إذا كان منامًا-ما كان أشكل على كفَّار قريش ولا اعترضوا على ذلك؛ لأنهم يعلمون في المنامات ما يعلمون، لكن ما دامت قريش أكبرته وأنكرته، إذًا النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أخبرهم أنه أُسري به وعُرج به في اليقظة بجسده-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وروحه.

والإسراء لُغةً: السير بالشخص ليلًا.

وشرعًا: سير جبريل بالنبيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-من مكة إلى بيت المقدس.

والمعراج لُغةً: الآلة التي يُعرج بها، وهي: المصعد.

وشرعًا: السُلم الذي عَرج به الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-من الأرض إلى السماء.

وقد ثبت الإسراء والمعراج في القرآن، أمَّا الإسراء ففي سورة الإسراء، وأما المعراج ففي سورة النجم. وخُلاصة ما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة: أن جبريل أمره الله أن يسري بالنبيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-إلى بيت المقدس على البُراق.

والبُراق: دابة دون البغل وفوق الحمار.

ثم أمره أن يعرج به إلى السماوات العُلى سماءً سماء، حتى بلغ مكان سمع فيه صرير الأقلام، وَفرضَ الله عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وأُطلع على الجنة والنار، وكلَّم الأنبياء الكرام، وصلَّى بهم إمامًا، ثم رجع إلى مكة فحدَّث الناس بما رأى، فكذَّبه الكافرون، وصدَّق به المؤمنون، وتردَّد فيه آخرون.

[وَفُرِضَت عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ].

يعني: فرض الله-تعالى-على الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وعلى أمته الصلوات الخمس ليلة المعراج، كما هو معلوم خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم لم يزل يختلف بين موسى وبين ربه حتى وضعها الرب-جلَّ جلاله وله الحمد والمنَّة-إلى خمس، وقال: هي خمسٌ وهُن خمسون.

وهذا من أكثر ما نتفكَّر فيه وقت صلاتنا، فصلاتك الواحدة تعدل عشر صلوات مما أُمرت بها؛ فأتقنها بارك الله فيك، واشتاق إليها نفعك الله بها.

[وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ].

فيكون معناها: الإسراء قبل الهجرة بثلاث سنين. وكان-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يُصلِّي الرُباعية ركعتين حتى هاجر إلى المدينة، وذاك الوقت أصبحت أربعًا، كما ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري: ((فُرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

ففرضت أربعًا وتُركت صلاة السفر على الأولى))[1]. وبعد الثلاث عشر عامًا من بعثته أُمر بالهجرة إلى المدينة، والدليل على أن الهجرة بعد ثلاث عشر سنة من البعثة حديث ابن عباس الذي أخرجه البخاري: ((بُعث الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشر سنة يوحى إليه ثم أُمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، فمات وهو ابن ثلاث وستين))[2].

والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

ومُناسبة ذكر الهجرة مع الأصول الثلاثة: لبيان أن الهجرة من أبرز تكاليف الولاء والبراء.

يعني سنرجع لأول قواعد ذكرناها: **[أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ]**، ثم يأتي بعد هذا: **[أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ]**، ثم يأتي بعد هذا: **[أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ]** ماذا يجب عليه؟ **[فإنه لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيب]**.

هنا ظهر أيضًا: أن الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أُمر بالهجرة. هذا من تحقيق تكاليف الولاء والبراء، والشيخ أظهر هذا الأمر وناقشه في رسالة الأصول الثلاثة، يُبيّن لك كيف أن الهجرة تأتي بعد امتلاء قلبك بتوحيد الألوهية، فترى أن أرضًا لا تستطيع فيها عبادة مولاك لابد أن تهجرها، وأرضًا لا تستطيع فيها الدعوة إلى ربك مع توفُّر الإمكانية أن تدعوه في أرض أُخرى؛ وجب عليك أن تُهاجر إليها.

على كل حال، بلد الشرك هو الذي تُقام فيه شرائع الشرك، ولا تُقام فيه شرائع الإسلام على وجه عام.

يعني مثلًا: أهم الشرائع والشعائر الصلاة، فإذا كانت الصلاة مظهرًا من مظاهر البلد؛ فهو بلد إسلامي، وإذا كانت الصلاة يُقيمها أفراد أو جماعات لكن هي ليست من مظاهر البلد؛ فلا يُحكم على البلد أنه بلد إسلامي. نعم مثل الأقليات المسلمة يُقيمون الصلاة لكن في حدود مجتمعهم.

قال: **[وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلام]**.

بيَّن الشيخ أن الهجرة واجبة وفريضة، ودَّلت على هذا المعنى النصوص من الكتاب، والسنَّة، وإجماع المسلمين؛ لما فيه من حفظ دينهم، ولما فيه من مُفارقة المشركين، فإن المؤمن يرى أن الأرض التي يُحفظ فيها دينه هي أرضه وبلده.

ولقد قضى الاستعمار للأسف على هذه المشاعر، فترى ما أورثه من عصبيات، وما أورثه من حزبيات، وما أورثه من علاقات جُغرافية غير سوية مع ما في الأمة من استعداد لأمر الجاهلية، فترى قوم ربطهم التوحيد، وربطهم العلم، يتنابذون بالألقاب، وبالدول، وبالجنسيات، والله هذه من الجروح العظيمة التي لابد من علاجها. ومن السياسات الرهيبة التي أدخلت على المسلمين انقلابة في مفهوم الولاء والبراء، فبدل من أن يكون الشوق إلى أرض الحرم، وحب أهل التقوى في أي مكان هو الذي يُحرّك قلوبنا، أصبح أنت من؟ ما أصلك؟ من أي بلد أنت؟ وترى أن الاحترام والاحتقار مبنيٌ على من أي بلد أنت؟ والمصيبة أنه لا أحد يحترم أحد، أصلًا هؤلاء يرون أنفسهم أحسن من هؤلاء، وهؤلاء يرون أنفسهم أحسن من هؤلاء، فيعني: ما فيه أشراف وأوضاع أصلًا، يعني: شريف

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري (3935) واللفظ له، ومسلم (685)

(2) رواه البخاري (كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، 3902)

ووضيع أصلًا، لا، كلهم يرون أنفسهم على بعض، ولا تسأل بعدها كيف يُقطع طالب العلم عن الطلب! وأنا يؤسفني أن أقول إنه تأتي لحظات تخرج هذه الأضغان: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُم}[1] تأتي في موقف ليس له علاقة بأي شيء ثم يُخرج الله-عزَّ وجلَّ-ما في قلب هذا الشخص من عداوةٍ لا قيمة لها، وعصبية، يعني: صنعها الشيطان في قلبه، لكن نحن بين إعذارٍ وحزن على أن يكون مثل هذا بين طلبة العلم، ثم لا تسأل عن التراشق بالاتهامات، ولا تسأل عن الهوى الذي يُتَّبع، ولا تسأل عن نظرات الاحتقار المتبادلة، ولا تسأل عن الذنوب والمعاصي التي تجري وراء هذه النفسيات.

فنسأله-سبحانه وتعالى-أن يشرح صدورنا للخروج من وصف الجاهلية وأهلها. ولذلك أنا أنصحكم عزيزاتي، وأنصح كل من يسمعني: أن يتَّقي الله، ولا يرتبط مع الناس بموروثات فكر، وظنون واحتمالات. سيكون الحساب عسيرًا، وستجتمع الخصوم عند الله، وسيخرج مكنونات القلوب مهما دفنتها هنا. سيأتي اليوم الذي تُحاسب فيه أمام الله، وأنا أقصد ما يقع في القلوب من احتقار، وعدم احترام، وعدم الاتزان في الولاء والبراء.

على كل حال، مسألة الولاء والبراء تحتاج إلى زيادة مناقشة، أسأل الله أن يُيسِّر لنا أن نقرأ رسالة مسائل الجاهلية، وفي هذه الرسالة توجد ضوابط لمسألة الولاء والبراء في داخل شرحها.

قال: **[وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى يوم القيامة]**.

يقصد الهجرة. الهجرة التي هي الانتقال من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة باتفاق أهل العلم، وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((لا هجرة اليوم كان المؤمنون يفر الواحد منهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-مخافة أن يُفتن عليه)) يُفتن على دينه ((فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث شاء؛ ولكن جهاد ونية))[2]

نقرأ الآن كلام ابن حجر على كلام عائشة-رضي الله عنها-قال الحافظ ابن حجر: أشارت عائشة إلى بيان مشروعية الهجرة، وأن سببها خوف الفتنة، والحكم يدور مع علَّته. فمقتضاها: أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه، وإلَّا وجبت. ولا يتعارض هذا مع حديث النبيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-الصحيح: ((لا هجرة بعد الفتح))[3]

المقصود بالحديث: لا هجرة من مكة بعد فتحها؛ لأنها صارت دار إسلام، وكل بلد يُفتح ويكون بلد إسلام؛ فإن الهجرة لا تجب منه.

الآن أتى الشيخ بدليل على أن الهجرة باقية إلى يوم القيامة، أنها واجبة، وأنها باقية، استشهد بآية سورة النساء: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ} يعني: تركهم للطاعة ما سببه؟ أنهم كانوا مستضعفين في الأرض؛ لأنه وصفهم أنهم ظالمي لأنفسهم، ردت عليهم الملائكة، ماذا قالت؟ {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً} ماذا تفعلوا إذا علمتم أن

(1) [سورة محمد: 29]

(2) رواه البخاري (كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، 3900)

(3) رواه البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب وجوب النفير، وما يجب من الجهاد والنية، 2825)

أرض الله واسعة؟ {فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا} ثم حُكم عليهم {فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءتْ مَصِيرا}، وأتى الاستثناء: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلا}[1]

لابن قدامه وغيره تقسيم في وجوب الهجرة-تقسيمهم على هذه الآية-قسَّموا وجوب الهجرة على هذه الآية، ماذا قالوا؟

قالوا: الهجرة من بلد الكفر ثلاثة أضرب، والناس ثلاثة أصناف:

الصنف الأول

تجب عليه الهجرة: وهو القادر عليها مع عدم إمكان إظهار دينه، وأول هذه الآية يدل {قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ} حُكم عليهم بماذا؟ {فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّم}، يعني: وجه الدلالة من الآية: أن الله-جلَّ وعلا-وصفهم بأنهم ظالمون لأنفسهم. فمن بقي في بلد الشرك وهو قادر على الهجرة ولا يقدر على إظهار دينه؛ فهو ظالم لنفسه مرتكبًا لحرام بالإجماع.

الصنف الثاني

من لا هجرة عليه: وهو العاجز عن الهجرة: إما لمرض أو لإكراه على الإقامة، أو ضعف للنساء أو الأولاد. لماذا هؤلاء ليس عليهم هجرة؟ لأن الله قال: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِين}؛ لكن عليه أن يعتزل الكفار ما أستطاع ويُظهر دينهم ويصبر على آذاهم.

الصنف الثالث

من تستحب له الهجرة: ولا تجب عليه الهجرة كما تجب على الصنف الأول، وهذا في حق من يقدر على الهجرة؛ لكنه متمكن من إظهار دينه، فهذا تستحب له الهجرة؛ لأجل أن يتمكن من جهاد الكُفَّار، وتكثير المسلمين، والتخلص من سلطتهم المعنوية.

هذا الكلام راجعه في المغني، انظر الكلام هذا في المغني من أجل أن تتوسَّع في فهمه.

بهذا يتبيَّن لنا حكم الهجرة، يعني الآن أنت عندك شرطان فكر فيهما-وعلى أساسهم يكون حكم الهجرة-:

الشرط الأول: القدرة على الهجرة.

الشرط الثاني: عدم التمكن من إظهار الدين.

يعني هذان المحوران يدور حولهما وجوب أو عدم وجوب الهجرة.

---

(1) [سورة النساء: 99،97].

قال: [وقوله: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [العنكبوت: 56]]، هذا الدليل الثاني الآن. [قَالَ الْبُغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: سبب نزول هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ].

ففي هذا دليل على أن الذي يترك الهجرة ارتكب محرَّم؛ لكن ليس بكافر؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يقول: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا} ولو كان كافر ما ناداهم باسم الإيمان. وذكر ابن كثير: أن تارك الهجرة يُعتبر عاصيًا ظالمًا لنفسه، وفي الآية-آية النساء-واضح أنه ظالمٌ لنفسه. كلام البغوي هذا لخَّصه الشيخ من كلام البغوي.

والبغوي حكى هذا عن أئمة السلف، قال:

[وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ : قَوْلُهُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: ((لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))] حتى تنقطع التوبة، يعني ماذا؟ يعني: حتى لا تُقبل. تنقطع التوبة ليس من جهة الفاعل، يعني التوبة لا زالت موجودة إلى يوم القيامة، الناس ممكن يتوبون؛ لكن من جهة قبولها، تنقطع التوبة من جهة قبولها.

نعلِّق على هذا تعليقًا أخيرًا:

[((لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))] [رواه أحمد في مسنده].

كأن هذا الكلام يدل على أن الهجرة ستبقى إلى قرب قيام الساعة. وهذا المعنى ورد في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد: أنَّ النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قال: ((لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يُقاتل))[1] وأيضًا في حديث عبد الرحمن ابن عوف، وعبد الله ابن عمرو ابن العاص-رضي الله عنهما-أنَّ النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قال: ((أنَّ الهجرة خصلتان، أحداهما: أن تهجر السيئات، الأخرى: أن تُهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تُقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها، أو من المغرب، فإذا طلعت طُبع على كل قلبٍ بما فيه، وكُفي الناس العمل)).

قول المُصنف الآن رحمه الله: [فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ].

هذا يُبيِّن لك أنَّ الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-دعا إلى التوحيد، لكن هذه أساس دعوته، ولا يعني أنه لم يدعُ إلى غيره، فدعا إلى غيره. وكما مر معنا أن العقيد يُنتقل بها إلى غيرها، ولا يُنتقل عنها إلى غيرها.

ذكر مثال على بقية الشرائع، قال: [مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ]. هذا كله لبيان حال النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-في المدينة.

قال: [أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ-صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ-وَدِينُهُ بَاقٍ].

(1) رواه أحمد في مسنده 133/3، صحَّحه أحمد شاكر

[أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ]: يعني أخذ على تبليغ الشريعة وبيانها في المدينة وغيرها عشر سنين، ثم توفِّي. وكما سمعتم الأسبوع الماضي-الجمعة الماضية-كلام الشيخ السديس في خطبته: أنه لا خلاف أنَّ الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-توفِّي يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول، وكان يُعاتبهم يقول لهم: كيف أنكم تفرحون ولا تحزنون مع أنَّ السلف في قلوبهم مُصيبة عظيمة؟! فقد النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فكيف تأتون إلى اليوم الثاني عشر وتفرحون مع أنَّ المفروض أنكم تحزنون؟! فهذا مدخلٌ جديد دخل به هذا العام على إنكار مسألة المولد، الله المستعان. أنتم لو رأيتم الحرم ترون عجبًا، حتى أن بعض الزائرات إلى الحرم-يعني طبعًا نحن في البلد ما فيه إشهار لمسألة المولد لكن ترى الزحام في الحرم وتستغرب-فأحد الزائرات من البلد جلست بجانبها أحد الأخوات من الدول العربية، فتسألها: أنتم دائمًا تأتون الحرم؟ نعم-كلام بهذا المعنى-يعني تقول لها: نعم. قالت لها: أنا الآن-هذه التي من الدول العربية تقول لها-أنا آتي قبل العيد بأسبوع. فاستعجبت قبل العيد بأسبوع! إما يكون في الحج، أو يكون في رمضان. ماذا يعني قبل العيد بأسبوع؟ فتبيَّن لها أنها تقصد العيد بمعنى المولد، فهذا الذي موجود في نفوسهم. أنت لما تأتي تُناقش الذي يستعمل المولد تجدهم يلفون ويدورون على أنه يوم عادي، وما نقصد شيء ومجرد، لكن ما الذي مُترسِّخ في نفوس الناس؟ مثل هذه الكلمات: أنه عيد، أنه احتفال بمناسبة دينية، ما هو من العادات، مناسبة دينية في نظرهم، الله المُستعان، يعني إذا التفت يُمنة تجد الشرك، يُسرةً تجد البدع، لابد أن نستغيث بالله عسى الله يكشف الغُمة عن الأمة، يُكشف غمَّة الجهل عنه، ويكشف غمة ترك مُتابعة نبيه، الله المستعان.

قال: [وَدِينُهُ بَاقٍ] أي: لأنه دينٌ عام إلى يوم القيامة للبشرية، في مُقابل أن الأديان السابقة مؤقتة بأوقات مُعينة انتهت بنهايتها؛ لكن دين النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-دين عام لجميع البشرية.

قال:

[وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تعالى وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ].

وكلام الشيخ هذا منزوع من الحديث الأثر الذي ورد عن أبي ذر-رضي الله عنه-قال: "تركنا الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وما طائرٌ يُقلِّب جناحيه في الهواء إلَّا وهو يذكرنا منه علمًا"، قال: قال الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ))[1].

قال:

[بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ اللهُ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: 158]].

هذا يدل على عموم رسالة الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. و (للناس): لفظ يشمل العرب والعجم، وقد ورد عن أبي هريرة-رضي الله عنه-أنَّ النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قال: ((وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، وصححه الألباني.

وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ))[1]. فهذا الحديث الذي أخرجه مسلم أيضًا دليل على عموم رسالته، وعلى وجوب الإيمان به.

يقول الشيخ: [وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا} [المائدة: 3]].

فإكمال الدين حصل بتمام النصر، وبتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، سواءً كانت اعتقادات أو أعمال، وهذا يدعوك إلى الالتزام بالشرع وترك الابتداع.

[وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُون} [الزمر: 30]].

ومعنى الدليل: أنك يا محمد، ستموت وتُنقل من هذه الدار لا محالة.

{وَإِنَّهُم مَّيِّتُون}، يعني: سيموتون ويُنقلون من هذه الدار لا محالة مثلما سُتنقل أنت.

فهذا فيه ردٌ واضح على من يدَّعي أنَّ الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لم يمت. وأنت تجد في بعض كتابات أهل التصوف اعتقادهم أنَّ الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لم يمت، يعني كثير من الغُلاة الذين يدَّعون تعظيم النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وتبجيله إذا قلت لهم أنَّ الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-ميّت، يغضب! يقول لك: كيف تقول إن الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-ميّت؟! لا بد أن يسمعوا من كلام الله ما يدلُّهم على هذا الأمر لابد، هو لا يدري ماذا قال الله، لكن يستعمل عاطفته، يقول: لفظة ميّت أو مات على الرسول لا تجوز. ومن أجل هذا في أحد الكتب واحد من أهل السنَّة يصف موقفه مع واحد من أهل البدعة مُقلِّد-المُبتدع هذا مُقلِّد ليس رأسًا-المُبتدع دخل على هذا الرجل الذي من أهل السنَّة فقال له: أنتم تقولون عجائب، يقول للسُنِّيّ: أنتم تقولون عجائب، وتبغضون النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-ألا تستحون أن تقولوا: أنه ميّت! فرد عليه مُباشرة قال له: لست أنا الذي أقول إنه ميّت، الله-عزَّ وجلَّ-الذي يقول: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُون}[2] فوقع في الذهول. يقول صاحب الكتاب: وقع هذا المقلِّد في الذهول أن هذه آية في كتاب الله! فأنت انظر إلى هذا الأمر وأعلم أنه مُتكرِّر، أن يذهل كثير من العامة عن مثل هذه الحقائق المُسلَّم بها لكن الله المستعان.

قال: [وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: 55]].

المقصود أن هذه من الأصول التي يجب الإيمان بها. ونحن مر معنا سابقًا أن الشيخ -الذي يظهر والله أعلم-أنه كان في زمن أنكر الناس فيها البعث بعد الموت؛ فلذلك انتقل الشيخ، يعني: استفاد من تقرير أن الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مات وأنه يُبعث. واضح كيف انتفع من الآية {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُون} ؟ أتى بها إثبات على ماذا؟ على أنه كل الناس يموتون، {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ

(1) رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب وُجُوبِ الإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ، 403).

(2) [سورة الزمر: 30]

رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُون}[1] دخل على نقاش مسألة أنَّ الناس إذا ماتوا يُبعثون. وكما مر معنا أنه ربما يكون هذا الأمر من الأمور التي انتشرت في زمانه-إنكار البعث-فقرَّر هذه الحقيقة بوضوح. فمن أصول الإيمان: البعث بعد الموت.

[وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ].

أنت تعلم أن بعد البعث هناك ورود الحوض، وهناك الميزان، وهناك الحساب، وعرض الأعمال. وقد حصل خلاف عند أهل العلم في الترتيب بين هذه الأشياء، وقد يكون أولى ترتيب إلى أنَّ الناس يردون الحوض أولًا؛ لأن الناس يُبعثون من قبورهم عطشى بحاجة إلى الماء، ثم أنَّك تعتقد أنَّ النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-له حوض عظيم يشرب منه أهل الجنة، وتعتقد أن الأنبياء أيضًا لهم أحواض، وتعتقد أنَّ النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-ينتظر أمَّته عند الحوض، وهو فَرط أمته على الحوض، يعني: ساقيهم، ومنبره-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-على حوضه، فتعلم أن هناك من يرد-نسأل الله أن يجعلنا منهم-وهناك من يُحرم ويُطرد- نعوذ بالله من الخُذلان-وحتى أنَّ الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لا يدري عن سبب طردهم، وهذه المعلومة مُهمة؛ لأنه يُستدل بها على أن الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لا يدري ما يحدث بعده من التغيير والتبديل والردَّة والابتداع عن الدين، لا يدري؛ لأنه من علم الغيب، والأنبياء لا يعلمون في حياتهم إلَّا بإعلام الله لهم.

على كل حال، الذي يظهر أن أول ما يحصل بعد البعث ورود الحوض، ثم الميزان، ثم الحساب والعرض. والعرض المقصود به: عرض الأعمال وعرض الكُتب، وبعد ذلك الناس مجزيون بأعمالهم.

والناس في جزائهم بأعمالهم ينقسمون أولًا: إلى مؤمن، وكافر، ثم يأتي الاختلاف بين المؤمنين: بين من يدخل الجنة بغير حساب، وبين من يكون في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، هؤلاء الذين يُخرجون من النار، ويُطرحون في نهر الحياة، ويكون هذا بعد التطهير؛ لأن الجنة دار الطيبين، لا يدخُلها إلَّا الطيبون. والمهم أن تعلم أن أهل السَّنة والجماعة يعتقدون أنه لا يخلد في النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، أو من خير، ثم ذكر الدليل: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}[2]

قال: **[وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَاستشهد بقَوْلِهِ تَعَالَى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي} [التغابن: 7]].**

فمن كذب بالبعث كفر؛ لأنه تكذيب بخبر الله وخبر رسوله، والتكذيب بخبر الله أو خبر رسوله سواءً كان في البعث أو في بعض صفاته أو في الأحكام أو العبادات، هذا يُعتبر ناقض من نواقض الدين.

قال: **[وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ].**

فيختم الشيخ الآن الرسالة بالكلام عن اعتقادنا في الرُسل، وأن ما تعتقده في النبيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-من أنه أُرسل مُبشرًا ومُنذرًا، اعتقده في بقية الأنبياء.

---

(1) [سورة الزمر: 31]

(2) [سورة النجم: 31].

[وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} النساء: 165]. فعُلم أن نوح بعده أتى بقية الأنبياء، فمعناه: أنه هو أول الأنبياء.

[وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ].

كلهم ماذا يفعلون؟

[يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [النحل: 36]].

هذا كله بعد اعتقادك في نبيك، ماذا تعتقد في بقية الأنبياء؟ فأنت لابد أن تعتقد أنهم كلهم بعثهم الله لنفس الأمر [يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ]. ومن هنا بدأ يتكلَّم عن الطواغيت، من هنا ختم الرسالة بالكلام عن الطواغيت.

قال: [وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ].

من هنا ابتدأ الشيخ في الكلام حول الطاغوت، يعني: كيف تسلسل في الأمر؟ ذكر ما يجب عليك من معرفة النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثم لما ذكر أنه ميت، ذكر أن الناس كلهم ميتون، فكما أنك تعتقد أنه ميت اعتقد أن الناس كلهم ميِّتون، وهذا الاعتقاد يجعلك تؤمن باليوم الآخر، وأنك ستُلاقي ربك يُحاسبك. ثم عاد لختم الرسالة بالكلام عن اعتقادك في كل الأنبياء، يعني: تعرف نبيك وبقية الأنبياء، فلمَّا تكلَّم عن كل الأنبياء الباقيين أظهر لك أن كل الأنبياء اجتمعوا على أن يأمروا الناس بعبادة الله واجتناب الطاغوت. فقال لك: [وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ]، ومن هنا تعلم أنه لا بد من الجمع بين الكفر والإيمان، تكفر بكل أحدٍ غير الله وتؤمن بالله، والطاغوت مأخوذ من الطُغيان، والطُغيان: مجاوزة الحد.

نأخذ كلام ابن القيم.

[قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ].

ومعنى الطاغوت هذا يحتاج إلى تأمُّل جيد، من أجل ألَّا تمر عليك هذه الكلمة كأنك بعيد عنها.

والمقصود أنَّ الطاغوت: هو ما طغى، ما تجاوز حده، ما طغى وتجاوز حده، فما معنى تجاوز الحد؟

{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}[1] يعني: أنَّ كل شيء له حد معروف، فتعدي الحد يُصبح طُغيان، فالماء له مكانه الذي يجري فيه، كيف طغى؟ يعني: زاد عن الحد الذي يُعرف به، هو فيه حد به يُنتفع، يعني: بقاؤه في حده ينفع، فلما طغى أصبح عقوبة، الماء لما طغى أصبح عقوبة، فكل شيء تجاوز الحد الذي يُحد له يُعتبر في اللغة: طاغوتًا.

(1) [سورة الحاقة: 11]

وأعلم أنَّ كلمة طاغوت من أبنية المُبالغة، مثل: الجبروت، مثل: الملكوت. لما عرَّفه ابن القيم قال: **[مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ]**، معناه: أنت مطلوب منك أن تعرف حد كل أحد، فتكون حذرًا من أن تتجاوز به الحد. لذلك مسألة الطواغيت مسألة حيوية، يعني: الكلام على الطاغوت مسألة حيوية، ليست هي مسألة غائبة وبعيدة، لا، حيوية بمعنى أنك لو أتيت إلى الطبيب هذا له حد في اعتقادك، أنه ماذا؟ أنه سبب. فلما يتعلَّق به قلبك، وحتى أفهمك المسألة أكثر، لو كُنت تُعالج من مرض ثم قيل لك: طبيبك مات. وهذا المرض خطير وما أحد يعرف دواءه من أهل الأرض مثلًا، فترى قلبك فزع، واسودت الدنيا في عينيك، وتصوَّرت أن لا شفاء، فمثل هذا تجاوز العبد حده مع الطبيب. فكما أنه-سبحانه وتعالى-سبَّب السبب، فسيُسبِّب لك، يعني: جعله الذي مضى هذا سبب، سيُسبِّب لك غيره، وهذا لا يُنافي أن تحزن عليه، لكن تجاوز الحد: اعتقاد أنَّ التطبب ذهب! وأنه لا يوجد أمل! أو لا يبحث حوله! فأنت ربما تحزن أنك وجدت وانتهيت، ما فيك تبحث من جديد عن أحد جديد، لكن أيضًا أنه كلَّما زاد إيمانك كلَّما تصورت حقيقةً أن الطبيب الله، طبيبها خالقها.

إذًا كل ما تجاوز به العبد حدَّه من ماذا؟ من معبود أو متبوع أو مُطاع.

المعبودون يعني: تأتي إلى شخص وتُعظِّمه غاية التعظيم، وتتعلَّق به غاية التعلُّق، ثم تصرف له من العبادات القلبية أو البدنية، لماذا فعلت هذا؟ لأنك تجاوزت به الحد في وصف كماله.

تعال إلى المتبوع: ومن أهم المتبوعين العلماء الآن، أو حتى الكُهان والسحرة. لنقل: طلاب العلم والعلماء؛ لأنهم مثل سهل ونُعايشه. هذا طالب العلم إنسان فاضل له مكانته، ولاَّ هذا العالم إنسان فاضل وله مكانته، إلى هنا هذا حدك، تتلقى منه العلم، تنتفع بفهمه لكلام الله، تنتفع بفهمه لسنَّة النبيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هذا كله جميل، إلى أن يصل الحد فترفعه عن مكانه، فتُعطيه صلاحية التشريع، أو تعطيه صلاحية التحكم في فعلك أو عدم فعلك يعني: من جهة البدع، تجعله رأسًا لك تتابعه من دون النظر للدليل، يُزن لك أحكام ما ورد دليلها، هذا كله مُجاوزة للحد.

أو مُطاع: الذي هم المقصود بهم، يدخل فيه: الحُكام والأُمراء الخارجين عن طاعة الله، الذين يحِّرمون ما أحل الله أو يُحلُّون ما حرَّم الله، كل هؤلاء تجاوزوا حدهم، بكونهم هيَّؤوا أنفسهم بأن يُطاعوا في غير طاعة الله.

قال: **[وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ]**.

إبليس: لأنه الداعي إلى عبادة غير الله، فهو أول الطواغيت، والله-عزَّ وجلَّ-يقول: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}، يعني: سماه الله-عزَّ وجلَّ-عبادة، {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}[1] والمراد بعبادة الشيطان: طاعته، فيدخل في ذلك جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان. هذا رأس الطواغيت؛ لأنه يأمر بعبادة غير الله، ويأمر بالفحشاء والمُنكر، فيطغى الإنسان بسببه.

(1) [سورة يس: 60]

أيضًا **[مَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ]**: والمعنى أن من علم أن الناس يعبدوه، ويتوسَّلوا إليه، ويصرفوا له شيئًا من أنواع العبادة، أو علم أنهم يفعلون هذا الفعل.

[وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ].

الثالثة: هي التي فيها أنه يدعوا الناس إلى عبادته وتعظيمه.

أما الثانية: علم هو أن الناس يعبدونه ويتوسَّلون إليه، ويصرفون له شيء من أمور العبادة، فرضي بهذه العبادة، يعني: هو ما دعا، هو عرِف، وما نهاهم.

والثالث: دعاهم. وهذا تجد في قلبه من حب العظمة، والفرح بتعظيم الناس ما تجد.

وأيضًا: **[مَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ]**.

هذا الرابع، وذلك كالمُنجِّمين، والعرَّافين، والرَّمالين، الذين يدَّعون شيئًا من علم الغيب. وأنت تعلم أن علم الغيب لا يكون إلَّا لله، فهذا ماذا فعل؟ تجاوز الحد، اعتدى على حق الله.

[وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ].

هذا الخامس: الحاكم بغير ما أنزل الله؛ يُعتبر كافرًا ظالمًا فاسقًا باعتباراتٍ مُختلفة، فالحكم بغير ما أنزل الله إذا كان فيه جحود للشريعة؛ يكون كفرًا، وإذا كان فيه مجاوزة لحق الإنسان واعتداء على حق الله في التشريع؛ يكون ظُلمًا، وإذا كان فيه خروج عن شريعة الله؛ سيكون فسقًا.

على كل حال، الحكم بغير ما أنزل الله إذا صاحبه مُعتقد أن حُكمه أصلح أو أنه مثل حكم الله-تعالى-فهذا كافر كفرًا يُخرج عن الملَّة. أما إذا لم يحكم بما أنزل الله، وفي نفس الوقت لم يستخف به، ولم يعتقد أن حكم غيره أحسن من حُكمه؛ فهذا يكون ظالم. أما إذا حكم بغير ما أنزل الله من أجل مُجاراة المحكوم، أو من أجل رشوة؛ فهذا يكون فاسق. ومن أجل أن تتبيَّن لكم هذه المسألة بوضوح أكثر، انظري رسالة تحكيم القوانين للشيخ: محمد بن إبراهيم رحمه الله.

قال: **[وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [البقرة: 256]]**.

فكان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله دليل على الاستمساك بالعروة الوثقى. فإذا أردت صفة الكفر بالطاغوت؛ فأعلم أن تعتقد بُطلان عبادة غير الله، وأن تتركها، وأن تبغضها، وأن تُكفر أهلها وتُعاديهم.

قال: **[وَهَذَا مَعْنَى لا إِلَه إِلا اللهُ]**.

مَعْنَى لا إله إِلَّا اللهُ هو الجمع بين الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

الآن نأتي إلى خاتمة الرسالة، قال:

[وَفِي الْحَدِيثِ: ((رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ)) [رواه النسائي]].

أراد المؤلف-رحمه الله-بهذا الحديث الاستدلال على أن لكل شيءٍ رأس، وأن رأس الأمر الذي جاء به الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-هو الإسلام.

والإسلام هو: شهادة أن لا إله إِلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، فنعود على ما بدأ-بالتوحيد-وننتهي به. فلا إله إلا الله معناها: اعتقاد أن لا أحد يستحق العبادة إِلَّا الله.

وشهادة أن محمدًا رسول الله: فيها مُتابعة للنبيّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وعمود الدين الصلاة: وهذا دليل على عظم شأن الصلاة، وأيضًا دليل على أن الأعمال من صُلب الإيمان؛ لأنه لما شُبِّهت الصلاة بالعمود عُلم أن هذا العامود إذا لم يكن موجودًا، يعني بيت الشعر إذا لم يكن هناك العمود الذي في الوسط لو سُحب ما تنفع الزوايا، يسقط البيت. وهذا دليل على أن ترك الصلاة سبب لزوال اسم الدين، واستدل الإمام أحمد وغيره من أهل العلم بهذا الحديث على كُفرِ من ترك الصلاة، وانظر كتاب الصلاة لابن القيم.

وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله: وذروة الشيء أعلاه، وذروة البعير سنامه، وهو أعلى شيء فيه؛ لذلك كان أعلى شيء في الدين الجهاد.

ويظهر لي أن الشيخ ختم بهذا الحديث؛ ليُبيّن لك أن هذا الدين الذي جاء به النبيَّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-ينبني على التوحيد، وفيه من الأعمال اللازمة، وفيه من الأعمال الفاضلة. فالإسلام أساسه، والصلاة عامود، والجهاد من أعظم أعماله الفاضلة.

قال: **[وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ].**

الحمد لله الذي يسر لنا إنهاء الرسالة.